المركز القومي للترجمة

توكوتومى كينجيرو (لوقا)

الجزء الأول

الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر (1906م)

ترجمة وتقديم
سمير عبد الحميد إبراهيم
سارة تاكاهاشي



هذه الترجمة التي نقدم الجزء الأول منها (الرحلة إلى فلسطين ومصر 1906م) لمؤلفها توكوتومى كينجيرو نمط مختلف تماما عن الكثير من الرحلات، فهى نموذج من الرحلات اليابانية إلى المناطق المقدسة لدى المسيحيين، بقلم أديب يابانى مسيحي يدعى توكوتومى كينجيرو "لوقا" قام برحلته كما ذكر بهدف الحج إلى "الأراضى المقدسة فى فلسطين" وبالتحديد فى القدس، ويستخدم كلمة الحج باللغة اليابانية التى استخدمها مواطنوه من المسلمين اليابانيين حين وصفوا رحلاتهم إلى الحج وأداء مشاعره فى مكة المكرمة، وتعد هذه الترجمة أول ترجمة إلى اللغة العربية لأى من كتاباته، وقد نشرت هذه الرحلة فى المجلد الثامن ضمن مجموعة مؤلفاته التى صدرت فى عشرين مجلداً.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

الرحلة اليابانية إلى مصر وفلسطين

الجزء الأول (١٩٠٦م)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 1895
- الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر: الجزء الأول (١٩٠٦م)
- توكوتومى كينجيرو (لوقا)
- سمير عبد الحميد إبراهيم، وسارة تاكاهاشى
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

徳 富蘆花集 8
巡礼紀行
徳富蘆花

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الرحلة اليابانية إلى مصر وفلسطين

الجزء الأول (١٩٠٦م)

تأليف: توكوتومي كينجيرو (لوقا)

ترجمة وتقديم: سمير عبد الحميد إبراهيم

سارة تاكاهاشي



2014

لوقا، توكوتومى كنيجيرو.
الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر (١٩٠٦م)/
تأليف: توكوتومى كينجيرو لوقا؛ ترجمة وتقديم:
سمير عبد الحميد إبراهيم، سارة تاكاهاش. ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.
مج ١: ٢٤ سم. ـ (المركز القومى للترجمة)
تدمك ٢ ٥٥٩ ٧١٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ فلسطين ـ وصف ورحلات.
٢ ـ مصر ـ وصف ورحلات.
أ ـ إبراهيم، سمير عبد الحميد (مترجم ومقدم)
ب ـ تاكاهاش، سارة (مترجم، مقدم مشارك)
ج ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٧٤٠/ ٢٠١٣

I. S. B. N 978 - 977 - 718 - 559 - 2

ديوى ٩١٥،٦٩

المحتويات

تقديم الترجمة

أدب الرحلة مجال خصب للبحث، لأن الأدباء حين يكتبون ذكريات رحلاتهم يعبرون عادة عن مشاعرهم بطريقة عفوية، وبخاصة تجاه الظروف التى يواجهونها، أو تجاه الأحداث التى يمرون بها، وتجاه من يلتقون بهم أو يتعاملون معهم خلال الرحلة، ومن هنا كان الحرص على ترجمة أول رحلة للحج كتبت بالفارسية فى الهند، وكذلك ترجمة رحلة خواجه حسن نظامى إلى مصر وفلسطين والشام عن اللغة الأردية، وترجمة سفر نامه حجاز للدريابادى عن الأردية، وقد صدرت ترجمة هذه الرحلات ضمن سلسلة الكتب المترجمة التى أصدرها المجلس الأعلى للثقافة، من خلال المشروع القومى للترجمة قبل أن يتحول مسماه إلى المركز القومى للترجمة. وتجدر الإشارة هنا إلى ترجمة رحلة المسلم اليابانى سوزوكى تاكيشى "الحج إلى مكة المكرمة" التى صدرت بعنوان يابانى فى مكة (الرياض ١٩٩٩م) وترجمة رحلات اليابانى تناكا إيبيه - رائد الدراسات الإسلامية فى اليابان - إلى الجزيرة العربية وآسيا (الرياض ٢٠٠٤م) ، أما هذه الترجمة التى نقدم الجزء الأول منها (الرحلة إلى فلسطين ومصر ١٩٠٦م) لمؤلفها كينجيرو توكوتومى فهى نمط مختلف تماما، إذ هى نموذج من الرحلات اليابانية إلى المناطق المقدسة لدى المسيحيين، بقلم أديب يابانى مسيحى، يذكر أن هدفه هو الحج إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين وبالتحديد القدس، ويستخدم كلمة (جونرئيه junrei الحج) اليابانية التى استخدمها مواطنوه من المسلمين حين وصفوا رحلاتهم إلى الحج، وأداء مشاعر الحج فى مكة

المكرمة. وكينجيرو توكوتومى ـ الذى اختار لنفسه اسما أدبيا هو "لوقا" ـ أديب ذاعت شهرته فى اليابان، وترجمت بعض أعماله إلى أكثر من لغة، وتعد هذه الترجمة أول ترجمة إلى اللغة العربية لأى من كتاباته، وقد نشرت هذه الرحلة فى المجلد الثامن ضمن مجموعة مؤلفاته التى نشرت فى عشرين مجلدا.

توكوتومى كينجيرو (لوقا)

إذا ما ذكر اسم كينجيرو توكوتومى ـ وتوكوتومى هو اسم العائلة ويستخدم عادة فى اليابان قبل اسم الشخص نفسه ـ وإذا ما ذكر مقترنا باسم أخيه إيتشيرو توكوتومى، فهو يذكرنى على الفور بالأخوين شوكت على ومحمد على فى الهند، والأخوين مصطفى أمين وعلى أمين فى مصر، فالأخوان كينجيرو توكوتومى (لوقا) وإيتشيرو توكوتومى (سُهو) يمثلان الصحافة والأدب، ويمكن القول ـ إن صح التعبير ـ إن كتاباتهما كانت خليطا من الأدب والصحافة والسياسة، مع تنوع واختلاف، نتيجة لظروف المكان والزمان.

ولد كينجيرو ـ أو كما أطلق على نفسه أحيانا لوقا ـ فى ٢٥ أكتوبر ١٨٦٨م فى إحدى قرى جنوب غرب جزيرة كيوشو لأسرة تنتمى إلى طبقة الساموراى، انتقل إلى كيوتو فى معية أخيه الأكبر ـ الذى كان بمثابة الوالد والآمر الناهى بالنسبة له ـ للدراسة فى جامعة دوشيشا، وكان كينجيرو سعيدا جدا بالدراسة فى هذه الجامعة، متمتعا بعالم جديد من الكتب، وأحاديث أعضاء الإرساليات التبشيرية المسيحية، وبجو خليط من الحياة اليابانية والغربية، حيث كانت زوجة "نيسيما جو" مؤسس جامعة دوشيشا ترتدى الأحذية الغربية والقبعات الأمريكية مع الكيمونو اليابانى. وكان الطعام يقدم على الطريقة الغربية، ولظروف خاصة انقطع كينجيرو عن الدراسة فى جامعة دوشيشا، لكنه عاد إليها مرة أخرى ولفت أنظار أساتذته واهتمامهم.

عمل كينجيرو توكوتومى فى إحدى المدارس المسيحية مع القس إيبينا أحد قادة المسيحية اليابانية، والذى صار فيما بعد رئيسا لجامعة دوشيشا، وفى فترة لاحقة قام الأخ الأكبر بترتيب عقد زواج كينجيرو توكوتومى الذى لم يسعد على

الإطلاق بهذا الزواج الذى رتبه له أخوه الأكبر، إلا أن العلاقة استمرت بل توطدت بين كينجيرو توكوتومى وزوجته أيكو حتى مماته، وهذا ما نلاحظه من إهدائه هذا الكتاب إلى زوجته.

بعد أن ذاعت شهرته أديبًا وروائيا، اتخذ من اسم لوقا اسما أدبيا، ولوقا أو روقا - كما تكتب باليابانية - تعنى الزهرة التى تنبت بين الصخور، لكن لا وجود لها فى الواقع، وهى من بنات أفكار كينجيرو توكوتومى، وصف بها نفسه!! وربما للاسم علاقة أيضا باسم القديس لوقا، وبخاصة أن اللام تنطق فى اليابانية راء، ولا وجود لحرف اللام فى الأبجدية اليابانية، فهو يلمح إلى الطبيب لوقا الذى كان وثنيا من أصل يونانى ثم آمن بالمسيح عليه السلام، ومن ثم وجه رسالته إلى ثاوفيلس أحد أصحاب النفوذ فى زمانه،وقد كتب القديس لوقا الإنجيل المعروف باسمه.

تعد رواية طائر الوقواق (هوتوتوغيسو) ورواية الطبيعة والحياة من أشهر روايات توكوتومى كينجيرو لوقا، وقد نشرت أعماله فى عشرين مجلدا، إلا أن حياته - التى لم يكن راضيا عنها - شهدت تقلبات عديدة، مما دفعه إلى محاولة العزلة والهروب إلى الجبال والغابات، وربما كان يود الهروب من الواقع الذى يعيشه!

فى أوائل أغسطس ١٩٠٥م وقبل السفر إلى فلسطين بعام تقريبا، تسلق توكوتومى كينجيرو جبل فوجى مع زوجته أيكو وابنة أخيه، وجبل فوجى فى اللاشعور اليابانى يمثل المقدس الذى ينال درجة عليا من الاحترام فى العقيدة الدينية الوطنية، ومن هنا تداخلت عقيدة كينجيرو المسيحية مع العقيدة الوطنية. عند قمة جبل فوجى أُغمى عليه، وظل مدة اثنتين وسبعين ساعة دون حراك ، فاقدا الوعى بين الصخور، ومع هذا فقد نجحوا فى النزول إلى أسفل الجبل، واعتبر كينجيرو نفسه قد ولد من جديد؛ فقرر فى نهاية ١٩٠٥م أن يقضى سنة منعزلا عن الناس وسط الجبال، فأقام هو وزوجته أيكو فى فندق صغير يدار من قبل جماعة مسيحية، وهناك قرأ مع زوجته الأناجيل المسيحية الأربعة، ورواية تولوستوى "ماذا علينا أن نفعل؟" وكانا يتمتعان بإنشاد الترانيم والتسابيح الدينية،

والمشاركة فى المناسبات السعيدة وسط تجمعات المسيحيين المحليين فى منطقة "إكاؤ"، وهكذا عاد إلى حضن المسيحية بقوة، لكنه لم يستمر على هذا الحال سوى ثلاثة أشهر فقط؛ فقد غير رأيه، وقرر بدء رحلته خارج اليابان، واستعد للرحلة بزيارة مسقط رأسه حيث اشتركت الأسرة فى تلاوة صلاة الرب، وأنشدت بعض الترانيم، ومن ثم انطلق كينجيرو فى رحلته من ميناء يوكوهاما.

الرحلة إلى فلسطين ومصر

سافر كينجيرو إلى فلسطين لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة وإلى مصر مرتين: المرة الأولى عقب الحرب اليابانية الروسية ١٩٠٦م، وفيها زار مصر وتركيا أيضا، ونشر ذكريات الرحلة فى كتاب بعنوان "رحلات الحج"، الذى نقدم ترجمته هنا، وجعل عنوان الرحلة الثانية "من اليابان إلى اليابان"، وكان قد بدأها فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٩م، وهى التى سنقدم ترجمتها فى الجزء الثانى.

من الجدير بالذكر أنه أثناء زيارته الأولى شعر بأنه سيأتى مرة أخرى إلى فلسطين، وربما تمنى ذلك؛ فقد كتب فى دفتر زوار الفندق: "ما زالت القدس فى خيالى، وما زالت فى حلمى!" وقد صدق حدسه.وعاد إلى القدس مرة أخرى سنة١٩١٩م.

لم يكن كينجيرو سعيدا بما شاهده فى القدس، وكان ـ كما ذكر البروفسير أكيرا أوسوكى ـ أحادى النظرة، فقد كان منحازا ضد اليهودية والإسلام، شعر بالقرف من المدينة ومن أهلها، ويمكن الرجوع إلى الصفحات الخاصة بوصف شوارع القدس وأسواقها للتعرف على مشاعره تلك.

لقد أحس بخيبة أمل لرؤية القذارة بداخل المدينة إلى الحد الذى لم يستطع معه إلا أن يقول بأنه يجب إحراق كل شىء بداخلها، ويبدو أن الصورة نفسها استمرت تلازمه فى رحلته الثانية، فقد شعر بكراهية الآخر العربى وغير العربى، المسلم واليهودى، وحتى الآخر الذى ينتمى إلى دينه أى المسيحى. كتب فى رحلته الثانية: "من المعروف أن الأماكن المقدسة مكان جذب لكل أنواع البشر، لكننى أصبت بالذهول الشديد عندما وجدت العديد من سكان القدس لا يخجلون من

كونهم متسولين، مما جعلنى أشعر بالتقزز من هذه المدينة؟!! لقد كانوا متحفزين للخطف والخداع والغش، ويفكرون دائما كيف يحتالون على شخص ما ليأخذوا ماله..." ويعلن صراحة أن هذه قاعدة دون استثناء، فحتى القساوسة كانوا يفعلون ذلك الأمر". كان هناك أتراك ويهود وسوريون وعرب وحتى قساوسة من القوقاز ذوى العيون الخضر الذين تتدلى من رقابهم الصلبان أو يمسكون السبحات فى أيديهم ، إن معظم هؤلاء الناس كانوا لصوصا محتالين أو مخادعين أو ينتمون إلى عصابات إجرامية.

ويرجع البروفسير أكيرا أوسوكى سبب هذه النظرة إلى تأثر المثقفين المسيحيين اليابانيين فى زمانه بالكتابات الغربية أو الاعتماد الكامل عليها مصدرًا للمعلومات عن الإسلام واليهودية(*).

ونرى أن كينجيرو فضلا عن كونه أحادى النظرة كان حاد المزاج أحيانا، مما أثر على أسلوبه وعلى تعبيراته، فهو حين يصف إسطنبول يذكرها كأنها تركيا، ويعتذر لأنه القادم من الشرق الأقصى يصفها بالقذارة وعدم النظام، وحين كان يشاهد الأهرام فى الجيزة، ورغم إعجابه الشديد بكل ما يراه فإنه وضع عنوان ذكريات هذا الجزء بشكل يعبر فيه عن مشاعره الداخلية، فذكر أن هذه الحضارة بلا ذوق، ولم يوضح ماذا قصد أصلا من هذا العنوان، ولم يكن يصرح عادة بمشاعره، فلم يذكر صراحة من جدع أنف أبو الهول فشوه جماله، لكنه كتب أن "غبيا" ذات يوم فعل هذه الفعلة، لكنه حين يكون مسرورا، أو حين يشعر بالراحة، يتغير أسلوبه تماما، فهو يكتب وهو على شواطئ البوسفور أنه نسى أنه فى تركيا، ويشعر أنه فى اليابان ، فإذا خلع الناس "الطربوش" فهم تماما مثل اليابانيين، مما أنساه أحيانا أنه فى تركيا. لكنه على كل حال لم يكن سعيدا مطلقًا بما شاهده فى فلسطين وفى القدس بشكل خاص، ومن الجدير بالذكر أنه استخدم الرمز كثيرا فى كتاباته.

(*) أوسوكى أكيرا: الحرب والعنف فى الأراضى المقدسة، رؤية رجل دين يابانى للقدس، ورقة مقدمة لندوة الحرب والعنف فى الأديان: ردود من عالم التوحيد، السجل العلمى للندوة العالمية لمركز الدراسات المتعددة المواضيع للأديان التوحيدية Cismor، ٢٠٠٤، جامعة دوشيشا، كيوتو.

في مايو سنة١٩١٤م مات أبوه، فطلب كينجيرو من زوجته أيكو أن تعد الرحمة "سيكيهان" sekihan على روح الأب، وهنا لا يتعامل كينجيرو مع الموقف طبقا للعقيدة المسيحية، وكما يقول البروفسير أوسوكى إنه ينبغى التنبيه فى حالة كينجيرو روكا إلى أن اعتقاده المسيحى كان يدور خارج نطاق الكنيسة، وهكذا طلب من زوجته أن تعد طبقا من الأرز والفاصوليا الحمراء ترحُّمًا على روح أبيه كازوتاكا؛ حتى ينتقل الى عالم أفضل أو إلى مرحلة أفضل من مراحل خلاصه. وهو هنا متأثربعقيدة الشنتو والبوذية معا، ويظهر الصراع جليا فى رفضه حضور الجنازة لا لشىء إلا ليتجنب موقف وجود أخيه بصفته الأعلى منه على رأس الحفل؛ إذ هو المشرف على مراسم الجنازة بصفته الابن الأكبر، وكان كينجيرو يكره أن يكون خاضعا لأخيه، وبالتالى شعر بالغضب من والده الذى كان دائما يحثه على طاعة أخيه دون نقاش. لقد أراد كينجيرو أن ينطوى على ذاته، طاويا معه زوجته أيكو التى شاركته مشوار حياته دون شكوى من تصرفاته التى وصلت أحيانا حد الغرابة، ورغم ما وقع بينه وبين زوجته أيكو من خلافات جعلها تسقط مريضة فإنه أخذ يعتنى بها ويمرضها وكأنها عروس فى ليلة زفاف، وقد أفصح عن مشاعره فى مجموعة مقالات تضمنت بعضا من سيرته الذاتية (الربيع الجديد) فوصف نفسه وأيكو بآدم وحواء فى جنة عدن الجديدة.

فى أواخر سنة ١٩٢٦م تدهورت صحة كينجيرو كثيرا، وقد زاره أخوه فى اللحظات الأخيرة. اعتذر كينجيرو لأخيه الأكبر لما سببه له من قلاقل، واعتذر لزوجته عما سببه لها فى مراحل الزواج الأولى، وغرق فى نوم عميق لم يصح منه، وأقيمت له جنازة مسيحية حضرها ألفان من محبيه. لكن يظل هناك تساؤل كبير حول مسيحيته، فقد كانت نوعا مختلفا لدرجة أنه يصعب القول بأنها مسيحية بالشكل المتعارف عليه، فبينما يرى البعض أنه بروتستانتى حقيقى إن لم يكن أرثوذكسيا، يرى البعض الآخر أنه كان تابعا لنموذج مسيحية عهد ميجى تماما، وهى تختلف بالطبع عن المسيحية المعروفة فى الغرب، لكنها من النوع الذى يمكن أن يفهم فى سياقها التاريخى، وهذا يوضح لماذا كان معظم قرائه من

المسيحيين، وهو على عكس اليابانيين الذين يتوقفون عن البحث عن المعرفة إذا ما وصلوا مرحلة البلوغ، فقد ظل هو طوال حياته قسيسا ملتزما بممارسته الدينية بحثا عن التنوير.

لكن يبدو أنه لم ينجذب إلى مسيحيي الغرب، نتيجة للأسباب التي عبر عنها كينجيرو في رسائله ومقالاته إلى أهل أوروبا وإلى المسئولين الأمريكيين وإلى رجال الإرساليات المسيحية، مما جعل الناقد الياباني سيئيتشيرو كاتسوموتو Seii-chiro Katsumoto في مقال له بعنوان "روكا والمسيحية" يذكر أن عقيدة كينجيرو تتوازى مع ما تدعو إليه جماعة الأوموتو (الشنتوية)، بينما يرى مانتارو كوبوتا Mantaro Kubota أنه بروتستاني حقيقة إن لم يكن أرثوذكسيا، بينما يرى البعض الآخر أن عقيدته كانت خليطا من طوائف النصرانية، بينما خلط أيضا بين النصرانية والبوذية اليابانية أو بين النصرانية والاشتراكية اليابانية، إلا أن أهم ما يلاحظ في شخصية روكا هو شجاعته التي جعلته يقف بشجاعة حتى في وجه الرئيس الأمريكي ورئيس وزراء بريطانيا، وحتى ضد الجنرال البريطاني أللنبي Allenby، وينتقدهم بشدة نتيجة إثارتهم للحروب وما جروه على البشرية من ويلاتها، وهو موقف يختلف عن موقف اليابان المعاصر من الحرب على العراق وأفغانستان والانصياع لأوامر أمريكا بإرسال قوات يابانية إلى العراق، وجهل ساستها بأوضاع الشرق الأوسط كما ذكر البروفسير أوسوكي.

صعوبات الترجمة

وأخيرا تجدر الإشارة إلى بعض الصعوبات التي واجهتنا في ترجمة النص الياباني، ويأتي على رأسها أسماء الأماكن والشخصيات، فالمؤلف كان يختار دائما للأماكن التي يذكرها الأسماء القديمة دون الإشارة إلى الأسماء المتعارف عليها؛ فهو مثلا لا يذكر "إزمير" باسمها المعروف لكنه يذكرها باسمها القديم "سميرنا" وحتى الأعلام التي كان يكتبها بحروف "الكاتاكانا" اليابانية، وكان نطقها يستلزم بحثا طويلا للتأكد منها، وعلى سبيل المثال ورد اسم "صلاح الدين" هكذا "سرادين"، ولولا السياق لصعب التعرف على الاسم. وقد استخدم المؤلف وحدات قياس يابانية قديمة في معظم الأحيان، إلا أنه كان يستخدم أيضا وحدات القياس المعروفة مثل القدم والميل، فهو يستخدم وحدة القياس "الشاكو" وتساوي

ثلاثين سنتيمترا، و "الجو" وتساوى ثلاثة أمتار، و "الرى" وتساوى أربعة كيلومترات وغيرها. وقد أشار ضمن كتاباته إلى عدد كبير من أسماء الأعلام القديمة والحديثة، مما استلزم الإشارة إليها والتعريف بها قدر الإمكان فى الحواشى، ضمن التعليقات التى أثبتناها. وكان المؤلف ينتقل فجأة من فكرة إلى أخرى، والأمر الأصعب كان تداخل كتاباته عن أفكاره مع ذكره لنصوص من الكتاب المقدس، أو اقتباسات شعرية لم يذكر إن كانت من تأليفه أو من تأليف غيره. وهنا تجدر الإشارة إلى أننا اعتمدنا كثيرا على ترجمة الكتاب المقدس "الإصدار الرابع الطبعة الرابعة ٢٠٠٩م" من النسخة العربية التى أصدرتها دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط المطبوعة فى كوريا، وأيضا كتاب "قراءة توضيحية فى الإنجيل" نشر الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة بالقاهرة (ط٢٠٠٩م)، فضلا عن الدراسات التى كتبت عن المؤلف باليابانية والإنجليزية، وذلك لفهم كثير من التعبيرات التى وردت فى النص، فالمؤلف كما سبقت الإشارة كثيرا ما كان يستدعى تعبيرات نصوص الإنجيل أو نصوص شعرية لم يذكر قائلها، ولم يوضح إن كانت من إبداعه الذاتى، وذلك أثناء شرح أفكاره وهو يمضى على درب رحلته.

ونتمنى أن نكون قد وفقنا فى تقديم ترجمة عربية دقيقة تعبر عن فكر المؤلف من خلال النص الأصلى، كما نتمنى أن تعطى الرسومات والصور التى التقطها المؤلف فكرة عن الأماكن التى زارها، وذلك منذ أكثر من مائة عام، وقد حاولنا بقدر الإمكان استخدام التقنيات المتوفرة لنقل الصور التى لم تكن واضحة فى أصل الطبعة اليابانية.

ولا يفوتنا هنا أن نقدم الشكر الجزيل لكل من مد لنا يد العون أثناء القيام بهذه الترجمة، وفى مقدمتهم البروفسير "أكيرا أوسوكى" المتخصص فى الدراسات الفلسطينية ودراسات الشرق الأوسط، والذى لفت نظرنا إلى هذا الكتاب وإلى أهميته للقارئ العربى، كما نشكر المركز القومى للترجمة ممثلا فى مديره ومنشئه الأستاذ الدكتور جابر عصفور وجميع الزملاء العاملين معه، مقدرين جهدهم الوافر فى إصدار ترجمات روائع الفكر العالمى باللغات المختلفة.

كيوتو، اليابان،٢١ مارس ٢٠٠٩م

وبالله التوفيق،

سمير عبد الحميد إبراهيم

سارة تاكاهاشى

إهــداء

إلى زوجتى

التى ربطنى بها رباط قوى لا ينفصم

ديسمبر ١٩٠٦م

مقدمة

فى يوم من الأيام فى بداية شهر مارس حين شاهدت الشمس تغرب من فوق جبل إيكاهو المغطى بالثلوج ، جاءتنى فجأة فكرة لم تخطر على بالى من قبل، فقد شعرت أن ما أريده حقا هو الأماكن المقدسة وليس المسيح! وفى نفس الوقت خامرنى شعور عجيب، فقد شعرت برغبة شديدة فى أن أشاهد طلعة الأذيب تولوستوى.

وهكذا بدأت أعد للسفر، وأشد الرحال للرحلة التى يطلق عليها بالمصطلح الدينى العام "رحلة الحج إلى الأماكن المقدسة"، وبسرعة وجدتنى أغادر ميناء يوكوهاما فى الرابع من شهر أبريل، ووصلت إلى تسوروغا بمحافظة فوتوئى فى الرابع من أغسطس. لقد استغرقت رحلتى مائة وعشرين يوما، كنت كلما أفكر فى طريق السفر، أظن أننى فى حلم، لم أكن أود أن أفكر أبدا، لأننى إذا ما فكرت فى مسافة الطريق وطول الرحلة أجد رغبتى القوية فى السفر تضعف تدريجيا، وهكذا أقلعت عن التفكير! لكنى تذكرت أشعارا من الأدب الصينى:

إذا ما انطلقنا على طريق السفر

سنواجه لا محالة المصاعب والمتاعب

سنواجه الرياح الشديدة والعواصف والنوائب

سنعانى من الأمطار الغزيرة

ونقاسى تضاريس الدروب المتعرجة

الصاعدة أحيانا والهابطة أحيانا

وهكذا إذا ما ذكرت لصديقى خبر رحلتى

تعجب وظن أنها أضغاث أحلام!"

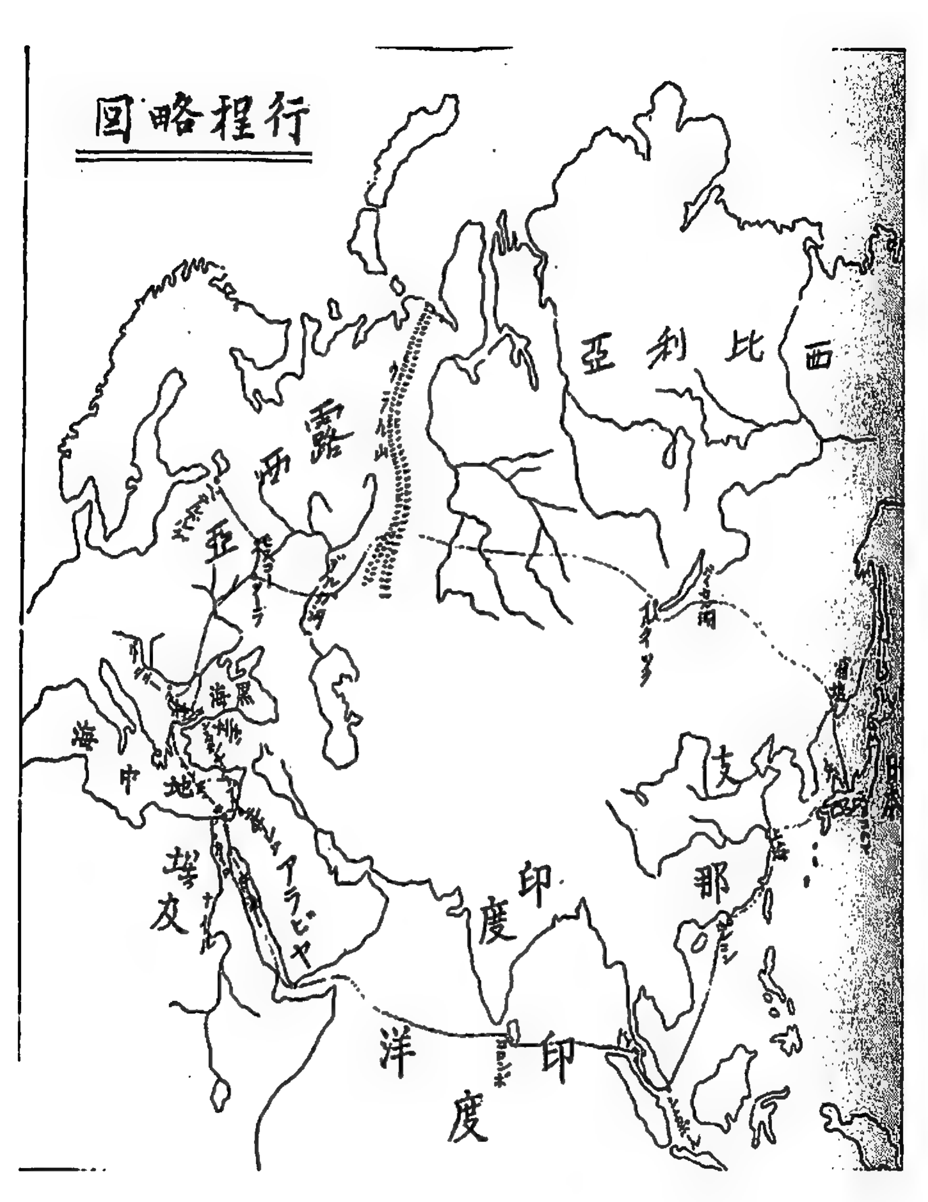
شعرت الآن حقا بمعنى هذه الأشعار وأنا أمضى على درب رحلتى إلى الأماكن المقدسة، إلى القدس، الطريق قريب منى لكن الهدف بعيد المنال.

حين تنفتح بصيرتى وتتملكنى رغبة ما، أشعر أننى كائن له وجود وسط هذا الكون المترامى الأطراف، وحين لا تنفتح بصيرتى وتتلاشى الرغبة من داخلى، لا يمكن أن أنال شيئا فى هذا العالم. أشعر بشىء من الخجل، لأننى لم أنل شيئا يذكر بعد عودتى من هذه الرحلة، لا أشعر إلا بأننى مجرد إنسان غبى لا أكثر.

توكوتومى كينجيرو

آؤياما - طوكيو

٣٠ ديسمبر ١٩٠٦م



خريطة الرحلة

فى السفينة

من يوكوهاما إلى بورسعيد

الرحيل

ما أروع بداية رحلتى للحج! صليت مع أبى وأمى وأختى الكبرى وزوجتى وابن أختى وابنة أخى، وأنشدنا معا الترنيمة المقدسة بعنوان شروق الشمس.

فى الرابع من شهر أبريل سنة ١٩٠٦م غادرت فندق "ريوأن" الكائن ببلدة "زوشى" بالقرب من منطقة كاماكورا، كنا فى الصباح وكان الجو يميل إلى الاعتدال بينما السكون يخيم على كل شىء، وجبل فوجى يبدو من بعيد وقد غطاه الضباب، وبدا المنظر كما لو كنا فى عالم آخر غير عالمنا هذا. واليوم يحتفل الناس هنا بمرور ستمائة عام على وفاة هوجو توكيمونيه[١] ولهذا أقام الناس احتفالا بهذه المناسبة ، ومن نافذة السيارة أخذت أشاهد الناس يمشون فى صفوف متوازية حاملين الأعلام والفوانيس اليابانية.

وصلت إلى يوكوهاما حيث ركبت السفينة "بنغو مارو"، كانت أزهار الساكورا (الكرز) فوق المرتفعات والهضاب قد تفتحت تماما وبدت كأنها تبتسم، بينما كان رصيف الميناء حيث رست السفية يعج بالناس بين مسافر ومودع لمسافر، كان الناس يتحدثون، ويتصافحون ويضحكون فى جو اختلطت فيه كل أنواع المشاعر الإنسانية، لم أخبر أصدقائى بسفرى هذا، فقد اعتبرته سرا، كما رفضت أن تأتى أسرتى هنا لوداعى، لكنى حين شاهدت المنظر الآن تأسفت كثيرا، وغبطت

---

(١) الحاكم العسكرى الساموراثى لمنطقة كاماكورا. (المترجم)

هؤلاء الناس، وأخذت أتطلع هنا وهناك أبحث بين خلق الله فربما جاء أحدهم من أجلى بالخطأ، إلا أن هذا كان ضربا من المستحيل!

فى الساعة الثانية عشرة ظهرا حل موعد الرحيل. بورسعيد مكان بعيد... بعيد جدا من هنا، نحو ٨٣٠٠ ميل!(٢).

اليابان الوطن الجميل

فى مساء يوم الخامس من أبريل وصلنا ميناء كوبيه ، ومن هناك زرت بيت أختى الكبرى فى مدينة كيوتو القريبة، وفى اليوم التالى ذهبت مع أخى الأكبر إلى قبر الأستاذ " نيجيما " فى منطقة هيجاشى ياما(٣)، وفى يوم السابع من أبريل غادرت كوبيه، أبحرت السفينة متجهة إلى خليج "سيتونايكاى".

كانت السفينة تمضى خلال النهار كما لو كانت صورة بالأبيض والأسود، وفى الليل كانت تسبح فى ضوء القمر، فكنا نشعر كما لو كان هذا السفر ضربا من الأحلام.

نزلنا ميناء "موجى" فى الثامن من أبريل حيث تزودت السفينة بالفحم.

مطر الربيع بدا كأنه يودعنى
وأنا أمضى راحلا عن موطنى

وداعا يا وطنى!

فى التاسع من أبريل غادرنا ميناء "موجى"... وداعا يا وطنى! وأخيرا لم أتمكن من حبك ، حتى وأنت صغير مثل الطفل، لكن يا وطنى لك مستقبل عظيم، إن كان لديك طموح، وإن كانت لديك أحلام، ستجعل يا وطنى من نفسك نعم الإنسان؛ لهذا عليك أن ترد الجميل للرب الذى خلقك بلدا جميلا كلوحة بديعة رسمها أروع فنان، انزع يا وطنى عن رأسك هذا الإكليل، لا حاجة للتاج، فمن يحمل السيف سوف يموت بالسيف ولو بعد حين، إن معركتك لن تكون فى الشمال، ولن تكون

(٢) هكذا فى الأصل. (المترجم)

(٣) هو نيجيما جو مؤسس جامعة دوشيشا فى كيوتو، حيث درس المؤلف عدة سنوات، وارتبط بالجامعة منذ شبابه. انظر المقدمة، وانظر موقع الجامعة على شبكة الإنترنت. (المترجم)

فى الشرق ولا فى الغرب ولا فى الجنوب، فعدوك هو أنت... أنت عدو نفسك، فاخش الله، وأحب جيرانك، وعليك أن تتطهر من رجسك، سوف تجاهد ياوطنى نفسك، وتنفتح على العالم كما لو كنت رياحا تهب عبر المحيطات الأربعة. أظهر يا وطنى للدنيا أولئك الناس الذين يلتفون بالأعلام التى تتوسطها الشمس، وأشرق بنفسك فوق المحيطات الأربعة.

حمامة فى سفينة نوح

كانت الريح القوية تدفع السفينة التى تزن ستة آلاف طن، فتهتز بشدة وهى تمخر عباب الموج، كنت أرقد على بطنى فوق ظهر السفينة مثل طفل لا يكترث بما حوله، كانت كابينتى على الجانب الأيسر، بمساحة قدرها أربعة تتامى ونصف[٤] وقد فرشت فيها ستة مراتب من الإسفنج، وكانت بها نافذة تمدنا بالضوء والهواء، كان يمكننى أن أشاهد السماء اللانهائية حيث تلاشت الحدود، تعرفت على رفاق السفر، رفيق مسافر إلى البرازيل، واثنان مسافران لمشاهدة معرض ميلانو، ورفيق رابع مسافر إلى بريطانيا، كان هؤلاء هم رفاق كابينتى، حين نفتح الباب كانت تواجهنا كابينة الدرجة الثالثة وهى كابينة مظلمة، مفروشة بالحصير الرخيص، وتعجبت كثيرا لوجود فرق كبير بين الكابينتين.

شاهدت شابين مسافرين إلى أستراليا لصيد اللؤلؤ، وشابا آخر كان مسافرا إلى شمال أمريكا لدراسة توليد الطاقة الكهربائية باستخدام القوى المائية، وكان هناك آخرون مسافرون إلى شنغهاى وهونغ كونغ وسنغافورة، شاهدت فى الكابينة أيضا عائلة صينية وطلابا صينيين.

كانت هذه أول رحلة بحرية لشركة "يوسينغ غايشا" Yuseng-gaisha إلى أوروبا لهذا كان اليابانيون يمثلون نحو ٩٠٪ من المسافرين ، كانت كبائن الدرجتين الأولى والثانية مملوءة عن آخرها، وكانتا تعجان بالمسافرين من وزارة الخارجية والإدارات الحربية، وطلاب البعثات، والمسافرين لدراسة فن المسرح، ومجموعات من متاجر "الكيمونو" الزى اليابانى التقليدى، بالإضافة إلى موظفى هذه الشركة

(٤) التتامى قطعة من الحصير اليابانى بطول ١٩٠ سم وعرض ٨٠ سم، وتحسب مساحات الغرف بعدد ما تحتويه من التتامى، والغرفة العادية قد تحتوى على ٦ تتامى أو أقل. (المترجم)

البحرية. كنت أشاهد أنماطا مختلفة من الناس، فهؤلاء الناس يسعون من أجل تطور اليابان وتحديثه، ولهذا أرسلوا خارج الوطن. أما أنا... فلست أدرى لماذا أنا مسافر؟ لأى سبب أنا مسافر؟ كنت كما لو كنت حمامة فى سفينة نوح عليه السلام! كنت كمن يريد فقط أن يلتقط غصنًا من شجرة!

شنغهاى

فى الحادى عشر من أبريل وصلنا مدينة شنغهاى، لم أر أى مكان يستحق السياحة، لكنى شاهدت منظرا شيقا جذابا، فقد لفت نظرى وجود إعلان مكتوب على مدخل منتزه عام جاء فيه: "محظور على الصينيين الدخول"، وشاهدت حارسا هنديا طويل القامة بشكل ملحوظ يمنع ثلاثة من الصينيين من الدخول، بل يطردهم بعيدا حتى لا يتمكنوا من الاقتراب من مدخل المنتزه.

فى السوق الصباحى الذى يعقد مبكرا شاهدت امرأة غربية على رأسها قبعة من الصوف وهى تحمل بيديها دجاجة حية لا تتوقف عن الصياح، وكانت تشير إلى صاحب المحل رافعة ثلاثة أصابع من أصابع يدها كأنها تشير إلى الرقم ثلاثة... كان منظرها عجيبا!

هونج كونج

فى يوم الثالث عشر من أبريل غادرنا شنغهاى، وفى اليوم التالى كانت الرؤية متعذرة بفعل الضباب الكثيف، كان على السفينة أن تستمر فى إطلاق صفاراتها وهى تمضى فى عرض البحر، وفى يوم الخامس عشر أبرقت السماء وأرعدت، وهطلت الأمطار الغزيرة، بينما كانت السفينة تقترب من المنطقة الاستوائية، ووصلنا إلى هونغ كونغ يوم السادس عشر، كان الجو هنا شبيها بالجو فى اليابان فى موسم المطر، وهو جو غير مريح على كل حال.

نزلت إلى المدينة فى اليوم التالى، حيث شاهدت أنماطا مختلفة من البشر، الوجوه مختلفة والعيون مختلفة، حتى وقع الأقدام بدا لى متباينا، والضوضاء بدت كأنها مختلفة عن تلك التى اعتدت سماعها من قبل، بينما الصياح الصادر

عن معظم الناس كان كله منصبا على النقود ولا شىء غير النقود. مضيت إلى الضواحى البعيدة، وهناك أثار تعجبى سماع صرير حشرة السيمى[٥] التى اعتدنا على سماعها فى منتصف فصل الصيف، ورأيت أن أتسلق الجبل وأركب عربة الحبال "كيبل كار" إلا أننى لم أر شيئا من حولى بسبب الضباب الكثيف، بعدها زرت سوقا يطلقون عليه السوق رقم واحد فى شرق آسيا، وهناك اشتريت بعض الفاكهة، وتعرضت لهطول الأمطار الغزيرة.

بحر المنطقة الاستوائية

غادرنا هونغ كونغ صباح يوم الثامن عشر، كانوا قد نصبوا منذ أمس خيمة على ظهر السفينة لتحاشى أشعة الشمس المحرقة، وفى اليوم التالى رأيت أن أرتدى فيما بعد "اليوكاتا" اليابانية[٦]، صار لون البحر مثل لون الياقوت الأزرق، يا له من لون جذاب! كم كان رائعا وجميلا لون البحر! فى اليوم التاسع عشر شاهدت السمك الطيار يطير مثل الفراشات، وكنت أمتع نفسى بشوق وسعادة بمشاهدة الدولفين، وفى منتصف ليلة يوم الحادى والعشرين ذهبت إلى مقدمة السفينة، ووقفت هناك وحدى، لم يكن هناك أى مسافر غيرى، شعرت بدفء الهواء، وقد بدت السماء قاتمة بينما كان عدد النجوم التى تتلألأ على صفحتها كثيرا جدا بشكل مخيف، بينما السفينة تمضى فى بحر لا أشاهد فيه سوى الظلمة، وبينما أنا على هذا الحال إذا بأحد رفاقى بالكابينة يأتى إلى جوارى، فأخذنا نتطلع معا إلى السماء ونحن نردد هذه العبارة:

"يا الله! لقد خلقت هذه السماء التى لا نهاية لها.. يا الله كل هذا من خلقك، ومن قدرتك!"

فى يوم الثالث والعشرين داعبتنا السماء برذاذ المطرالخفيف، وصار الجو جافا قليلا، بينما كنا نقترب من خط الاستواء حيث كانت السفينة تتجه ناحية سنغافورة، حيث ألقت مراسيها فى الساعة الحادية عشرة صباحا، نزل جميع المسافرين فى كابينة الدرجة الثالثة المقابلة لنا إلا مسافرا واحدا.

---

(٥) حشرة يقال إن يرقتها تظل مدفونة فى الأرض سنوات ثم تظهر فراشة وتصدر صريرا حادا، وذلك يعنى بدء فصل الصيف الحار. ويرى اليابانيون أنه لا وجود لها إلا فى اليابان. (المترجم)

(٦) السروال والقميص اليابانى التقليدى الذى يلبس فى الصيف. (المترجم)

سنغافورة

حين نزلنا إلى المدينة بعد الظهر أصابنا الخوف فقد أبرقت السماء وأرعدت، وكان علينا أن ننتظر حتى ينتهى البرق، ويسكت هزيم الرعد المخيف. بعد أن توقفت الأمطار أجرنا عربة ركبناها، وزرنا حديقة النباتات. سنغافورة مريحة ويسهل العيش فيها ربما بسبب الأمطار والخضرة، وقد شاهدت ألوانا كثيرا من الأزهار، وألوانا كثيرة من الهنود! فبعضهم بشرته بنية، وآخرون بشرتهم داكنة، وهناك من بشرته لونها أسود بنى، حتى اللون النحاسى تراه فى بشرة البعض منهم، بشرة الهنود متعددة الألوان، وهى ألوان تتفاوت درجاتها أيضا، فسبحان الله! كانوا يأكلون الكارى فى المطاعم، بينما يرتدون ملابس بيضاء ملفوفة فوق الخصر، وهؤلاء فى العادة يسحبون الجاموس الذى يجر عربات تحمل ثمار الأناناس.

فى حديقة النباتات شاهدت أشجارا لم أرها من قبل، وبعد أن توقف المطر صارت ألوان الأزهار والأشجار زاهية جدا وبدت الخضرة يانعة، وشاهدت السنجاب يلهو فوق الأغصان، وبدا كل هذا كأنه منظر اصطناعى غير طبيعى، فمثل هذا المنظر الخلاب لا يمكن أن يوجد له مثيل فى اليابان، وقد أتعب العقل مع النظر فى وقت واحد!

فى اليوم التالى اتجهت إلى وسط المدينة حيث شاهدت أناسا من البشر ترتسم التعاسة على وجوههم، لم ينلهم حظ من السعادة، فهم أحياء لكنهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة، وشاهدت كثيرا من الأطفال الأيتام وشعرت بالأسى والحزن.

بينان

فى مساء يوم الخامس والعشرين من أبريل غادرنا سنغافورة، ووصلنا إلى بينان يوم السابع والعشرين، وبعد ظهر اليوم التالى ذهبنا للتفرج على المدينة، كان على ظهر السفينة (الديك) عشرون مسافرا حتى وصولها إلى كولومبو، كانوا جميعا من الهنود، وكان من بينهم رجل يفهم الإنجليزية، ويدين بالمسيحية، ويبدو

أنه كان منشغلا بمطالعة بعض الكتب، بينما كانت هناك امرأة لوّنت جبهتها بروث البقر، وكانت تضع فى ذراعيها أساور من ذهب، وفى أذنيها قرطا من ذهب، وفى ساقيها أيضا وضعت حجلا من ذهب! وتعجبت لمنظر رجل يضع الكارى والأرز على ورق الشجر ويأكله بيده فى تلذذ غريب.

المحيط الهادى

غادرنا بينان ونمضى الآن فى المحيط الهادى، لا نرى أمواجا، والهدوء يخيم على كل شىء، وبدت السفينة تتبختر فى هدوء شديد... تذكرت تاريخ اليوم آخر أيام شهر أبريل ... فى طوكيو اليوم احتفال عسكرى! لذا قدموا لنا فى السفينة طعاما يابانيا خاصا، وفى تلك الليلة استمعنا إلى "الجرامافون" بينما كنا ننشد نشيد "داى وان إيرى" Dai wan Iri وهو نشيد يترنم به عادة المسافرون إلى أوربا لدراسة إدارة الفنادق!

لم يختلف اليوم عن الأمس... السمك الطائر يداعبنا، والدلافين تمتعنا بحركاتها، وطيور النورس تحلق من فوقنا، بينما تمر بجوارنا أحيانا بعض السفن، وكنا نشاهد الشمس تشرق وتطلع من الماء، وتغرب وتغرق أيضا فى الماء، تشرق من المحيط وتغرب فى المحيط، وأحيانا كنا نشاهد بعض تجمعات السحب فى السماء. لكن فجأة سمعنا هزير الريح واسودت السماء، وهطل مطر غزير فجأة، وتوقف فجأة كأن شيئا لم يكن، أو كأننا كنا نرسم لوحة طبيعية بفرشاة.

فى الثانى من شهر مايو شاهدت منظر الغروب، فكان لون السماء من ناحية الغرب مثل لون الليمون البارد، وفوق جزيرة سيلان شاهدت سحبا زرقاء قاتمة اللون، ومن تحت هذه السحب شاهدت خيطا أبيض ينزل من السماء!

كولومبو

وصلنا كولومبو فى الثالث من مايو، أخذت عربة حنطور وطفت بالمدينة مع رفيق سفرى الذى يقيم معى فى كابينة واحدة، وغادرنا كولومبو فى الخامس من مايو.

بحر القمر

بعد أن غادرنا كولومبو صار المحيط الهندى أكثر هدوءًا، وفى الخامس من مايو الذى كان يوافق اليوم الخامس عشر من الشهر القمرى سكنت الأمواج تماما، وكان الهواء عليلا، بينما كانت الليلة ليلة مقمرة بحق، مما جعلنى أشعر بالخسارة والأسف إذا ما أويت إلى فراشى مبكرًا ... فأخذت أتطلع إلى البحر فى ضوء القمر، لا حدود بين السماء والأرض، وتذكرت بعض الأشعار:

نمضى ونمضى حيث لا حدود تمنعنا من أن نمضى

بعيدا بعيدا كما لو كان البحر تحت ضوء القمر الفضى

متصلا بالسماء دون حاجز مادى

أشعر أن ضوء القمر الفضى يربط البحر بالسماء

الليلة ليلة مقمرة، ليلة السادس عشر كانت أيضا ليلة رائعة

وكذلك كانت ليلة السابع عشر أيضا

لا يمكن أن أنسى ما حييت ليالى المحيط الهندى المقمرة!

أحداث متفرقة فى الرحلة البحرية

يستغرق السفر من كولومبو إلى بورسعيد نحو أسبوعين، مسافة طويلة، ولهذا فهناك أماكن للتسلية وقضاء الوقت أثناء هذا السفر الطويل، هناك الشطرنج اليابانى و"البلياردو"، وحتى "الكريكيت". كما شاهدنا بعض القطط الأليفة، وهى تساعد من يريدون التسلية وتعينهم على قضاء الوقت، ولهواة تقليم الأشجار الصغيرة (بانصاى) فى أصصها نصيبهم أيضا(٧) على ظهر السفينة، وهناك أيضا مجال لمحبى لعبة (السيجة ـ جو)(٨)، يا لها من أنشطة متنوعة ومغرية،

---

(٧) فن يابانى يعنى بتقليم الأشجار وهى صغيرة فتنمو كاملة وتنتج الثمار، لكنها تظل شجرة قزمًا توضع فى أصيص يمكن نقله وتحريكه بسهولة، وعادة ما يهتم كبار السن بهذه الهواية لقضاء الوقت والتسلية. (المترجم)

(٨) لعبة الجو بجيم قاهرية شبيهة إلى حد كبير بلعبة السيجة فى الريف المصرى. (المترجم)

بينما يقوم الرجل الموكل بغسيل الملابس، بحمل القمصان والسراويل لينشرها على سطح السفية حيث الهواء الطلق وأشعة الشمس، أما الحلاق فلم يكن حلاقا محترفا بل كان هاويا، يقوم بقص شعر من يرغب من المسافرين، وهكذا امتلأت السفينة بالحركة والنشاط، وصارت كما لو كانت بيتا يضم أسرة واحدة، هذا ما يجعل السفر بالسفينة متعة، لم أضع جوربا فى قدمى، وكنت أمشى على سطح السفينة حافى القدمين، كنت أشعر كأننى أسبح. أكلت الأناناس الموجود فى الثلاجة، فاكهة المناطق الاستوائية كلها لها مذاق خاص، تشعرك بالدفء، فهى فاكهة دافئة قوية المذاق، فالموز مثلا حلاوته زائدة جدا تجعلنى أعرض عن تناوله بسرعة من شدة حلاوته، وقد صار الأناناس فاكهتى المحببة من بين الفواكه الاستوائية. آه تذكرت الأناناس الذى اشتريته من الصينيين فى سنغافورة، إذ لا يمكن أن أنسى مذاقه ونكهته، كنت أرتدى اليوكاتا اليابانية، فهذه رحلة يابانية على سفينة يابانية، لذلك كان ارتدائى لليوكاتا شيئا ممتعا.

أشير هنا إلى أنه حتى وصولنا إلى سنغافورة كنت راقدًا أعانى من شبه دوار البحر، وابتداء من كولومبو بدأت أتحرك بحرية على سطح السفينة، لدرجة أننى كنت أتناول وجبات الطعام الثلاث على السطح، وكان ذلك مريحا جدا بالنسبة لى، كنت أتناول الأرز والطعام الأوروبى الخاص، ولم أتناول اللحم فى كل وجبة، وكنت آخذ فى العادة شريحتين من الخبز، وحبتى بطاطس، وكنت أبدل بالبطاطس اللحم مع رفيق غرفتى، إلا أننى قبل الوصول إلى بورسعيد بأسبوعين فقدت شهيتى تماما. كانت هذه حالة خاصة جدا؛ إذ قدموا طعاما يابانيا، فغمرنى الفرح والسرور، أحد رفاقى بالغرفة سأل النادل: هل يوجد طعام يابانى؟! فأجاب: نعم..! عندها أطلق الجميع صفيرا عاليا تعبيرا عن الفرح الغامر.

شاهدت بعض الصبية، كانت بشرتهم سوداء، عمدوا إلى القفز من قواربهم إلى الماء والغوص بمهارة فائقة، شاهدت حركاتهم هذه وشعرنا بالسرور، لكنى تعاطفت معهم، فقد كانوا يقومون بذلك فقط من أجل كسب مبلغ أقل من نصف مليم. كنت مسرورا بمشاهدتهم كما لو كنت أشاهد عرضا مسرحيا على صفحة

الماء، كانت هناك قوارب صغيرة منتشرة هنا وهناك، قال ربان القارب الذى يقود السفينة مشيرا إلى ناحية أخرى: انظروا! هذه سفينة روسية. ثم أردف قائلا: اليابان دولة عظيمة، روسيا ليست شيئا، الموت لروسيا. كان هذا تملقا بالطبع، فهو سيحصل على بعض الهبات بالضرورة.

فى شنغهاى وهونج كونج وسنغافورة وبينان وكولومبو أنواع مختلفة من العملات المتداولة، وكان علينا أن نغير العملة دائما مع أننا كنا نمضى على طريق دولى لا يخص دولة ما، فتغيير العملات لم يكن بالنسبة لنا أمرا مريحا، هناك على وجه الأرض نحو "١٤٠٠٠٠٠٠٠٠" مليار وأربعمئة ألف نسمة يعيشون هنا وهناك، لسنا بحاجة إلى حدود تفرق بينهم، فقد كنت أشعر بالانزعاج نظرا لضرورة تغيير العملة بين يوم وآخر.

شاهدت غرفة المحركات ومكان التزود بالفحم حيث تصل درجة الحرارة إلى ١٨٠ درجة مئوية، وكان العمال والموظفون هناك يعملون على نوبات، مدة كل منها ساعتان أو أربع ساعات، إلا أن بعض العمال كانوا يخرجون إلى السطح يجلسون على الكراسى ويستخدمون المراوح لتجلب لهم مزيدا من الهواء البارد، وكانوا كمن يتمتع براحة ليست من حقه... ربما كانوا كسالى. وقد شاهدت ذات مرة كابينة البحارة، ورأيتهم يلعبون القمار، انتابنى غضب شديد، وشعرت بالحزن، أتمنى أن يوجد هنا بعض الأطباء أو بعض رجال الدين لعلاج هؤلاء وتقديم النصح لهم.

بدت السفية كوحدة اجتماعية، فالجميع يعيش معا مدة خمسة وأربعين يوما داخل السفينة بعيدا عن اليابسة، وبعيدا عن المشاكل والحلول والقضايا والمقترحات.

البحر الأحمر

دخلت السفينة البحر الأحمر فى الثالث عشر من مايو، صار لون مياه البحر يميل إلى الخضرة، شاهدت جزيرة عليها "منار"، وكان لون الصخور بين الأحمر والأسود، ولم يكن هناك وجود للخضرة على الإطلاق. حين تطلعت ناحية جزيرة

العرب رأيت جبلا مصقولا أحمر اللون يخلو من أى نبتة أو عشب، وهناك مناطق برونزية اللون تشكلت بفعل الرمال المحرقة، حين شاهدت السحب شديدة البياض فوق الجبل تخيلت على الفور الرسول محمداً (صلى الله عليه وسلم).

قناة السويس

فى يوم السابع عشر من مايو شاهدت جبل سيناء على الجانب الأيمن، شعرت حين أشرقت الشمس كأن هذا الجبل له نوع من الكرامة الخاصة، وصلنا السويس فى المساء، وبعد إجراءات الحجر الصحى الصارمة تحركت السفينة للمرور فى قناة السويس، على الجانب اليمن ترامت رمال آسيا بينما تربة إفريقيا كانت تمتد على الجانب الأيسر. وفى الثامن عشر من مايو مضينا فى طريقنا عبر قناة السويس وطلعت علينا الشمس، وكانت هناك أتربة رملية تضايقنا، ورغم أننى أغلقت الباب بسرعة فإن الكابينة امتلأت بذرات الرمال.

وداعا أيتها السفينة! وداعا بنجو مارو!

وصلنا مدينة بورسعيد التى شيدت وسط الرمال، وفى الساعة الثالثة بعد الظهر غادرت السفينة مع رفيق سفرى فى الكابينة، هذه هى اللحظة التى انتهت فيها الرحلة البحرية التى استمرت مدة خمسة وأربعين يوما... وداعا بنجو مارو! أتمنى لك الصحة والسعادة!

السياحة فى مصر

إلى القاهرة

فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الثامن عشر من مايو نزلنا من السفينة ووطئت أقدامنا أرض بورسعيد، آه منذ كنت فى سنغافورة كنت أنام على الأرض، والليلة سأنام فوق فراش ناعم وليّن، لم أستطع النوم على الفراش فى الفندق؛ فقد كان الفراش ليّنا أكثر من اللازم وطريا جدا!

اليوم هو اليوم التاسع عشر من شهر مايو ، بقيت ثلاثة أيام على مغادرة القطار متجها إلى فلسطين، وهذه فرصة لأتجول فى مصر خلال هذه المدة، وهكذا ركبت القطار المتجه إلى القاهرة، والذى تحرك عند الساعة الثانية عشرة ظهرا.

الطريق إلى القاهرة

مضى القطار على جانب قناة السويس باتجاه مدينة الإسماعيلية، كنت أشاهد الرمال الحمراء على جانبى الطريق، وكانت هناك أشجار عالية لا أدرى ماذا يطلقون عليها، كانت هناك أشجار تحمل أزهارا حمراء، وشاهدت نبات الصبار بكثرة، الدرجة الثالثة فى القطار حالها كحال الدرجة الثالثة فى أى مكان، كان بعض الركاب يضعون على رءوسهم الطربوش، بينما كان البعض الآخر يضعون العمامة، ويرتدون جلابيب بأكمام واسعة طويلة، وفى أقدامهم الصنادل، بينما كانت هناك امرأة تضع على وجهها البرقع الذى يتزين بقطع معدنية لامعة،

بالنسبة لى كأن هذا المنظر غير عادى بل يدعو للخوف... كان هناك شاب يدخل عربة القطار لبيع الصحف، بينما يدخل آخر لبيع عصير الليمون، وثالث يبيع الخيار، وشاهدت شخصا يبيع البطانيات.

بينما كان القطار يمضى فى الطريق إلى الإسماعيلية لم أشاهد حقولا خضراء إلا نادرا، فكل ما حولنا كان صحراء جرداء ورمالا مترامية الأطراف، بعد ذلك شاهدت ترعة للرى الزراعى ليست بالواسعة وهى تمتد من نهر النيل، كما شاهدت حقول القمح الذى نضج مبكرا قبل ميعاده، ورأيت الجمال والحمير بالقرب من الحقول ، بينما كانت بيوت القرى المتفرقة على الطريق مبنية كلها بالطين وطليت جدرانها باللون الأبيض.

وصلنا القاهرة فى الساعة الخامسة مساء، استغرقت رحلة القطار من مدينة بورسعيد إلى القاهرة خمس ساعات.

ليل القاهرة

ها هى مدينة القاهرة، النيل يجرى فى الناحية الغربية، وفى الجنوب الشرقى نشاهد جبل المقطم، ويبلغ عدد السكان نحو ٦٠٠ ستمئة ألف نسمة منهم ٤٠ أربعون ألفًا من الأجانب، كنت أتبع رجلا يرشدنى إلى الفندق الذى سأنزل فيه، اخترت فندقا رخيصا بالقرب من المحطة، واستأجرت مرشدا يرافقنى لمشاهدة ليل القاهرة.

فى المقهى كنت أسمع كلمات مدام ومسيو، بينما كان الناس يتسلون بلعب "الطاولة" (النرد)، كان المقهى شبيها بمقاهى باريس، فى المساء يكثر المسافرون الوافدون على المقاهى، وبخاصة فى فندق شبرد الذى يحتوى على ٦٠٠ ستمئة غرفة تشغل عن آخرها وبخاصة فى المواسم، وقد شاهدت أيضا فندق نيوكونتيننتال هوتل، لم أكن مهتما بمشاهدة ما هو أوروبى أو على الطراز الأوروبى، زرت سوق الموسكى، حيث توجد محلات ودكاكين صغيرة جدا فى حوارٍ ضيقة، كان علىّ أن أشق طريقى وسط الزحام الشديد بين الناس، وشاهدت الحمير التى وضعوا عليها زينات وزخارف من المعدن والنحاس، رأيت عجوزا ذا

لحية بيضاء تتدلى حتى صدره يمتطى حمارا يسوقه بين الزحام، كما شاهدت صبيا صغيرا يحمل قربة ماء، وشاهدت محلا كتبوا أعلاه اسمه هكذا "على بابا" وشاهدت امرأة وضعت على وجهها النقاب الذى كشف عن عينين براقتين.

ألوان السجاد الفارسى مع صوت الناس الذين يبيعون المشروبات تداخلت وتوحدت معا، وأعطتنى شعورا غريبا كأننى أعيش إحدى حكايات ألف ليلة وليلة!

أهذا هو نهر النيل؟!

فى الصباح الباكر جاءنى المرشد مصطفى، كنت على موعد لزيارة الأهرام، تزوج مصطفى مؤخرا، كانت يداه وأصابعه مخضبة بالحناء[1]. كان صباحا باردا، انطلقت إلى نهر النيل راكبا الحنطور، تلك العربة المميزة التى يجرها الحصان، شممت رائحة أزهار الأكاسيا[2]، عبرت الكوبرى الممتد على نهر النيل، وشاهدت تمثال الأسد عن اليمين وعن الشمال قعيدًا، كان نهر النيل يموج بالماء، وكانت المراكب والقوارب تنتشر على صفحة الماء تمضى هنا وهناك، جذبنى منظر المراكب الشراعية فهتفت بداخلى: آه أهذا هو نهر النيل؟!

طوال رحلتى لم أكن أشاهد سوى البحر، فاعتادت عيناى على مشاهدة البحر فقط، الآن أشاهد النيل وأشعر أنه مثل نهر "سوميدا جاوا"[3] نحن الآن فى الموسم الذى يقل فيه منسوب المياه عن العادة، لهذا إذا ذهبت إلى مصر العليا هناك فى الصعيد فسوف أشاهد النيل على حقيقته، أتمنى أن تتوفر لى هذه الفرصة!

حضارة بلا مذاق

ركبت قطارا يسير على سكة حديد أنشئت مؤخرا، وعلى طول النيل مضى بنا ناحية الجنوب، يقال إن خط السكة الحديد هذا سيمتد مستقبلا إلى إفريقيا، وقد وصل الآن إلى مدينة الخرطوم، حيث يوجد قبر الجنرال جوردن.

على ظهر مقاعد القطار توجد تعليمات للمسافرين كتبت بثلاث لغات: العربية والإنجليزية والفرنسية، وبشكل عام يمكن أن نقول إن مصر تتبع طريق السياسة

البريطانية، إلا أننى أشعر بالتأثير الفرنسى على المجتمع بشكل أوضح من التأثير الإنجليزى. كان القطار يمضى بين حقول القمح والحقول المزروعة بالخضراوات المختلفة، وأخيرا وصلت إلى هضبة مرتفعة حيث أمكننى مشاهدة الأهرام.

تفرجت على الأهرام، واستغرق ذلك خمسين دقيقة. آه، لقد أعطت الحضارة الناس الراحة، وسهلت عليهم سبل العيش، لكنها حرمتهم من الفرص التى تسمح لهم بالرومانسية ونظْم الشعر... شاهدت فندق ميناهاوس ومحلا للتصوير ومكتب بريد صغيراً.

الأهرام وأبو الهول

بعد أن صعدت على الهضبة وجدت نفسى أقف أمام الهرم الأكبر، هذا هو قبر خوفو، مضى عليه خمسة آلاف سنة، وارتفاعه ٤٥٠ قدما وقاعدته ٧٤٦ قدما... آه، لقد مرت خمسة آلاف سنة شهد فيها هذا الهرم هبوب الرياح وسقوط الأمطار مما أثر على جسمه فتقشرت أجزاء منه بفعل عوامل التعرية هذه، ورغم هذه القشور أو البثور فى جسم الهرم فإننى أشعر بأنه لا يزال وسيظل عظيما فخما مهيبا.

من خلف الهرم الأكبر شاهدت هرما ثانيا وعلى البعد شاهدت الهرم الثالث، ومن حول الهرم الأكبر شاهدت مقابر صغيرة لرجال من بلاط الملك ولخدمه، ما زالت المشاعر القوية تموج بداخلى تأثرا منذ شاهدت أهرام الجيزة، ركبت الجمل، وسار بى حول الأهرام وتحرك بى أمام أبو الهول، وهنا التقطت صورة للذكرى، وبقيت مدة أتمعن فى أبو الهول.. يقولون إن أبو الهول أقدم من الأهرام، وجه إنسان وجسم أسد، كان الأنف مكسورا قليلا بفعل غبى ارتكب حماقة كبيرة، لذا فقد أبو الهول جمال الماضى، طوله ١٤٦ قدما وارتفاعه ٥٦ قدما والوجه من الذقن حتى الرأس ٢٨ قدما ، حين وقفت أمام أبو الهول شعرت كما لو كان أبو الهول يبتسم لى، شعرت بأنه كائن حى، إنسان مثلى، وفى نفس الوقت شعرت بأنه حيوان قُدّ من صخر، أتعجب... ستة آلاف سنة... زمن طويل جدا!

النيل يمضى فى صمت لا يبوح بالكلمات

الليل مظلم حالك بلا حدود

يمتد امتداد رمال صحراء ليبيا

تبرق السماء وترعد مرتين أو ثلاثًا من أعلى الأهرام

بدا أبو الهول كما لو كان يتثاءب فى خمول

وكأن الأمر لا يعنيه فى شىء

منذ ستمائة عام وأنت راقد فوق الكثبان

نصف إنسان ونصف حيوان

وتمر الأيام، سيأتى زمن تتحول فيه المنطقة

إلى سهول تغطيها ثلوج تضارع ثلوج سيبيريا

حيث يفخر الناس هناك بثقافتهم

حين يحين الوقت الذى تتفتح فيه الأزهار فى الصحراء

قف أبو الهول! وانهض! وتخلص من نصفك الآخر

تخلص من نصفك الحيوان، وكن بأكملك الإنسان

حين وصلت إلى مستوى أقدام أبو الهول المطمورة فى الرمال شاهدت على القرب قبرا مبنيا من أحجار خاصة بالمقابر، فوقفت أمام القبر وأنا أفرج بين قدمى متطلعا إلى أبو الهول ومن خلفه الأهرام، كان المنظر رائعا خلابا وسط جو من الهدوء والسكينة، بدا لى كأننى لم أشاهد المنظر قبل هذه اللحظة، لا يمكن أن أصف بالكلمات ما أشاهده الآن... قطع علىّ خلوتى أحد البدو وهو يقول:

- مستر مستر سوف أرى حظك!

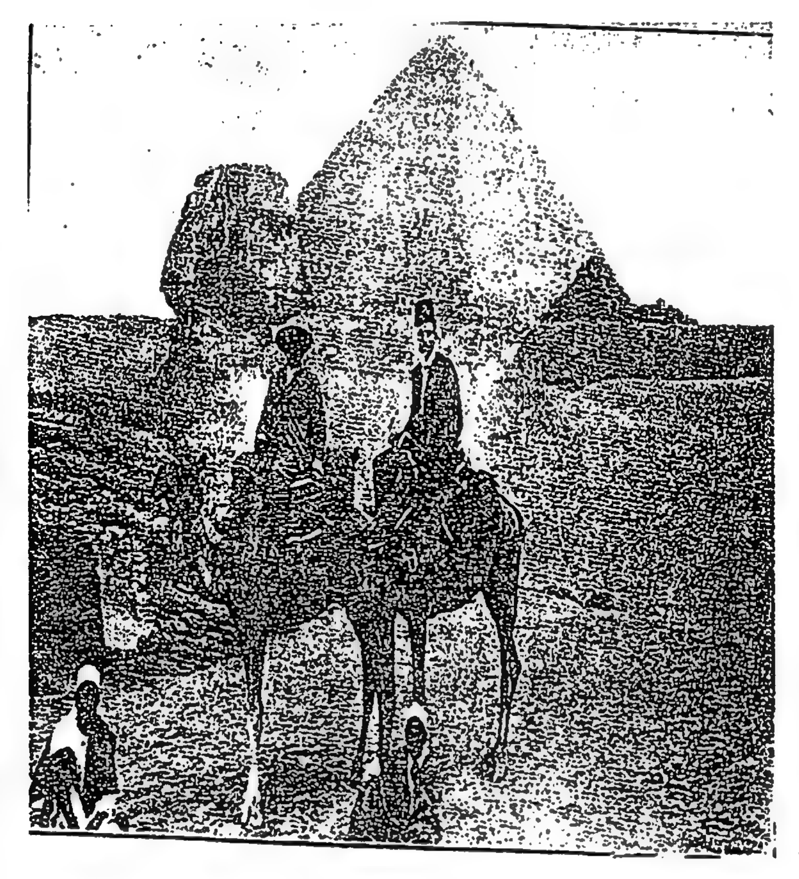
ثم رسم شكل الشمس على الرمال فسألته عن حظى فقال:

الله وحده هو الذى يعرف حظك!

فقلت له :

حسنا! وداعا!

وقلت وداعا للأهرام أيضا.. وداعا أيتها الأهرام!



الهرم الأكبر وأبو الهول

إصابة عصفورين بحجر

تذكرت هذه الحكاية، فقد كنت قد تسلقت الهرم مع مساعدى، وذلك من ناحية الركن الجنوبى الشرقى. الأحجار الرخامية الضخمة قطع أكبر من ٩٥سم، أمسك المرشد بيدى يساعدنى على تسلق الأحجار الضخمة، هبت ريح أطارت قبعتى من فوق رأسى فاندهشت وتعجبت، نظرت إلى الكتلة الحجرية التى تعلونى

فوجدت حية بنية اللون بطول ستين سنتيمترا، كانت حية سمينة كأنها حامل ستلد قريبا، أصابنى الرعب والوجل، لكن ربما لم تكن الحية سامة، التقطت حجرا وضربت به الحية فلفظت أنفاسها، ولفظت أيضا فى نفس الوقت سحلية صغيرة لم تكن قد ابتلعتها تماما!

هذا قبر ملك مرّت عليه خمسة آلاف سنة... أعتليه الآن بحذر، تملكنى الخوف، وصلنا إلى القمة فى عشرين دقيقة، يا له من هرم عظيم! لا يمكن أن أتخيل أن يبنيه إنسان.

مملكة الحياة ومملكة الموت

عند قمة الهرم منطقة مسطحة مساحتها نحو ٢٣٠ مترا[١] جلست هناك وأنا أتصبب عرقا، وبدأت أتطلع حولى وأنظر إلى أسفل الهرم على الناحية الشرقية حيث "مملكة الحياة"، شاهدت واهب الحياة لمصر، شاهدت النيل، أم المصريين؛ فهو لهم شريان الحياة، ما زال يمضى ويجرى كما كان منذ آلاف السنين، كانت ضفتاه مثل لوحة مرسومة بلون محصول القمح الأصفر، مع لون الخضراوات الأخضر، وصورة أشجار النخيل الباسقة الممتدة إلى السماء، ومدينة القاهرة تتراءى لى من بعيد أسفل جبل المقطم، ومن هنا حتى هناك يمتد طريق تصطف على جانبيه الأشجار الخضراء.

من الناحية الغربية شاهدت "مملكة الموت"، شاهدت الصحراء الجرداء، لا شىء غير صحراء مترامية ممتدة حتى الصحراء الليبية، التى يصف الناس رمالها بأنها أمواج مترامية كأمواج البحر، ومن فوق الهرم الذى أقف على قمته... الآن يمكننى أن أشاهد أهرامًا صغيرة كثيرة تحيط بالمكان، مر على معظمها آلاف السنوات، واكتشف بعضها مؤخرا، كما توجد كتل الأحجار الضخمة، ومن بعيد وعلى مرمى بصرى يمكن أن أشاهد أهرامًا سقارة، هذه مملكة الموت حيث لا حياة، ولا شىء سوى القبور، أمكننى أن أشاهد أسماء السائحين الذين وصلوا إلى قمة الهرم وأرادوا أن يعبروا عن ذلك بكتابة أسمائهم، وقد رغبت أنا أيضا فى ذلك فاستعرت مدية من أحد البدو وحفرت اسمى أيضا فوق قمة الهرم.

(١) ورد فى الأصل ١٠٠ سبو، وسبو واحد = ٢,٣ مترا. (المترجم)

بلد المقابر

لم أر داخل الهرم، فقد اكتفيت بالصعود على قمته، ورجعت كما جئت بالقطار، فى المساء ذهبت مع المرشد لزيارة مسجد محمد على ومشاهدة جبل المقطم، وشاهدت ساعة كبيرة قيل إن نابليون بونابرت كان قد أحضرها من فرنسا، ومن جوار مسجد محمد على أخذت أشاهد مدينة القاهرة وألمح من بعيد نهر النيل العظيم، وكان يمكننى أيضا أن أرى مجموعة الأهرام الثلاثة، مضيت عبر منطقة فقيرة جدا مملوءة بالذباب ومكتظة بالأطفال، وشاهدت قبور المسلمين، التى كانت مغطاة بأسقف أقيمت فوق أسوار المقابر، كانت جميع المقابر دون استثناء مزخرفة بكتابات من القرآن الكريم، ولاحظت أن رأس المقبرة يكون تجاه مكة حيث يتجه المسلمون فى صلاتهم، كانت هناك مقابر مزخرفة بألوان ذهبية، وسمعت أن المقبرة الواحدة تكلف نحو ٣٠٠ ألف ين[٢]، وقد أُعِدَّت مقاعدُ وأماكن للجلوس والراحة ملحقة ببعض المقابر حتى يستريح أهل الميت إذا ما جاءوا إلى القبر... آه، حقا هذا بلد المقابر!

كان علىّ أن أشاهد أماكن أخرى كثيرة مثل ممفيس وغيرها، لكنى كنت متعبا فاكتفيت بما رأيت.

المتحف

فى صباح يوم الحادى والعشرين من مايو زرت المتحف، قال الإنثروبولوجى اليابانى فوجى هوزو: إنه كان هنا ما بين ٢٠٠٠ ألفى طفل و ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف. لقد وهب الله الإنسان الرغبة فى الحياة إلى ما لا نهاية، واذا كان لأحد أن يشك فى هذا فليأت ولينظر إلى ما فى هذا المتحف، حيث يوجد أناس من الأحجار، وأناس من خشب الأشجار، وأناس من الفولاذ، وأناس من لحم وعظم حنطت أجسامهم... أنواع كثيرة من صور البشر، يتثاءبون فى صمت وسكون ويعلنون: نحن هنا... نحن ما زلنا على قيد الحياة. شاهدت تمثالا محنطا أسود وفى الأذن شاهدت قرطا من ذهب، وبدا القرط يبرق كأنه يضحك لأن الروح قد غادرت الجسد وتركته دون رجعة... أتمنى أن يُحفظ كل ما فى هذه المعبد إلى الأبد، أتمنى أن يظل حيا إلى الأبد؛ عبرة لكل البشر!

---

(٢) بالنسبة لذلك الوقت كان هذا المبلغ كبيرا جدا فى اليابان. (المترجم)

الماضى والحاضر

كان اهتمامى وأنا أزور مصر مركزا على الماضى، ماذا أقول عن الحاضر؟! أنا حزين قليلا من أجل مصر التى تأثرت بالثقافة الغربية وبالحضارة الغربية التى لم تؤسس على الإسلام ... الليلة غادرت القاهرة فى طريقى إلى بورسعيد.

إلى القدس

ما يُضحك وما يُبكى على رصيف السفينة

فى الساعة الخامسة من مساء يوم الثانى والعشرين من شهر مايو ركبت السفينة النمساوية "أموفيترايت" المتجهة من بورسعيد إلى يافا، كانت السفينة مملوءة بالأحمال والبضائع، وكانت هناك مجموعات من المسافرين الأتراك من مختلف الأعمار، مجموعات من النساء ومجموعات من الرجال، كان هناك رجال تتدلى شعورهم على الأذنين بشكل عجيب، ويضعون قبعات على رءوسهم، وكانت هناك نسوة يغطين وجوههن بإيشاريات شفافة تكشف إلى حد ما عن ملامح الوجه، وهؤلاء جاءوا من روسيا، وكانوا فى طريقهم إلى القدس، قالوا بأنهم ينتمون إلى عائلات يهودية، لم يكن هناك أى مكان للجلوس، كنا جميعا نقف دون أن نفعل شيئا، فقط قامت جماعة اليهود الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٨٠ سنة و٧ أو ٨ سنوات بإخراج صندوق أسود مثل الكاميرا، فوضعوه على جباههم، وربطوه بخيط من الجلد، بينما ربط كل منهم صندوقا آخر على الذراع الأيمن وثالثًا على الذراع الأيسر، وكان الرجل الذى يبدو زعيمهم قد بلغ من العمر أرذله، رجل هرم، لف جسمه بقماش أبيض، وكان كل رجل منهم يحمل نسخة من كتاب اليهود المقدس، يمسكه بيده وهو متجه ناحية القدس، وبدأوا فى الترتيل بصوت رخيم كأن شخصا يئن من وقع ما ألمَّ به من ألم، وكانوا ينحنون بأجسامهم من فوق إلى أسفل، ويتمايلون يسارا ويمينا، وفهمت أن هذه هى صلاتهم فى المساء، وعرفت أنهم يسمون الصندوق الأسود "تيفلين"[1] وبداخل هذا الصندوق كتبت

(١) تقليد يقضى بأن يضع الرجل الذى بلغ سن الرشد صندوقين صغيرين يلفهما بشريط على جبهته وذراعه الأيسر صباح كل يوم من أيام الأسبوع، وتكتب بالإنجليزية Tefillin. (المترجم)

عبارات من الكتاب المقدس، وهذا يعنى أنهم وضعوا وصايا الرب أولا على جبهتهم وعلى أذرعتهم، ثم بدأوا الصلاة بعد ذلك.

ذات مرة كانوا يفتخرون بأنهم شعب الله المختار، فمن بينهم أرسل كثير من الرسل، وحتى المسيح جاء أيضا من بينهم، لكنهم فقدوا إيمانهم، ونكثوا بالعهود، ولم يطيعوا ما جاء فى الوصايا العشر، فصاروا عبيدا للمال، وفقدوا أرضهم، وعاشوا سنوات معاناة وتعب فى الشتات. كيف يمكن لهؤلاء أن يكونوا فى انتظار"الماشيح"؟ على الأقل لقد صاروا الآن أناسا لم يعودوا يعانون كما كانوا فى السابق، وهم الآن يطهرون أرواحهم، شاهدت أطفالا كثيرين معهم، كانوا مثل الدمى، وكانوا أشقياء، لكن ملامح الجمال والوسامة تعلو وجوههم، شاهدت من بينهم أطفالا على وجوههم ملامح تدل على سمات أولئك الذين سيعودون حقا إلى إسرائيل فى المستقبل!

تم وضع الأحمال والبضائع على السفينة، اليهود والأتراك والسوريون كانوا يتسابقون، يحاولون احتلال أماكن طيبة على السفينة، وامتلأت الدرجة الثالثة فى وقت قصير جدا. انطلقت السفينة فى موعدها فى الساعة السابعة، مررنا بتمثال ديليسبس، ومررنا بالمبنى الضخم لشركة قناة السويس، وغربت الشمس وحل الليل، وكان ليل البحر الأبيض المتوسط باردا، وكنت قد تمكنت من احتلال مكان ضيق يسمح لى أن أجلس فيه القرفصاء، ولا أكثر من ذلك، وغطيت نفسى بالبطانية، ونمت وأنا أطالع النجوم المنتشرة فى السماء من فوقى.

اربع وعشرون ساعة كرنتينة

وصلنا فى الساعة الثامنة من صباح يوم الثالث والعشرين إلى حيفا، شاهدت من على ظهر السفينة صحراء ينعكس لون رمالها الأحمر على لون البحر الأبيض المتوسط الذى يميل للخضرة، ورأيت بيوتا بيضاء قائمة على المرتفعات والهضاب، هنا جاءت على بالى حكايات القديس يوحنا والقديس بطرس[٢].

---

(٢) هو يوحنا المعمدان الذى يعرف فى الإسلام باسم يحيى بن زكريا، وهو آخر أنبياء العهد القديم، وكان يعظ فى البرية المحيطة بنهر الأردن، وقصة قتله بأمر هيرودس معروفة. أما القديس بطرس فقد ولد فى قرية بيت صيدا فى فلسطين، وكان أول أتباع يسوع، ثم كان قائدا لبقية رسل المسيح عليه السلام، ومن المعروف أنه قتل صلبا على يد الرومان. (المترجم)

نستعد الآن للنزول من السفينة، شيء لم يكن فى الحسبان ولم نتوقعه، لا بد أن نوضع فى الكرنتينة (الحجر الصحى) مدة أربع وعشرين ساعة، نزل جميع ركاب الدرجة الثالثة إلى موقع الحجر الصحى، خلع اليهود أحذيتهم وجواربهم، وشقوا طريقهم فى الماء إلى أن وصلوا إلى الشاطئ حيث موقع الكرنتينة.

فى موقع الكرنتينة تم تجميع كل ممتلكاتنا وتبخيرها بالبودرة لتنظيفها والقضاء على أى جراثيم تكون قد علقت بها، ومن ثم وجب على الجميع أن يكونوا عرايا، حتى يتم رشهم بالبودرة مثلهم مثل أمتعتهم، بعد ذلك وحين حان وقت الظهر أدركت أن جميع المسافرين قد قاموا بترتيب أمر الطعام بأنفسهم من خبز وبيض وخيار ومشروبات، لكنى لم أهتم أبدا بهذا الشأن، ولم أكن مستعدا لذلك، فقد كان هذا الحجر الصحى أمرا غير متوقع بالنسبة لى، ومن المؤسف أننى منذ الصباح لم أتناول شيئا من الطعام، لهذا عضنى الجوع بشدة، وبالصدفة وجدت ما يشبه "الكشك" الصغير يبيع الطعام، وكنت فى عجلة من أمرى فأسرعت ناحيته، إلا أن صاحب الكشك كان يصيح فى وجهى من بعيد قائلا:

ـ لا تقترب! لا تقترب!

تعجبت كثيرا إلا أننى أدركت أن هناك بلاطة من الرخام عند الكشك، كان علىّ أن أضع عليها النقود، وفى مقابل ذلك أعطانى الرجل بعض الخيار ورغيفا من الخبز الأسمر وقطعة من الجبن المتسخة التى تعافها النفس، ولم يسلمنى الرجل هذه المأكولات، بل وضعها على البلاطة، وكان علىّ أن أحملها بعد ذلك، ربما كان يخاف أن أنقل إليه عدوى مرض أو وباء، ولذا كانت البلاطة الرخامية هى الوسيط بين البائع والمشترى، حتى لا يحدث تلامس بينهما. وحملت الطعام وعدت أدراجى مرة أخرى، حيث تم حجزنا داخل الكرنتينة!

بعد أن دخلت مصر سمعت عدة مرات الكلمة الشهيرة "بقشيش"، والأتراك هنا يرحبون بالضيف فى فلسطين، وكلمة الترحيب الأولى كانت "بقشيش"، جاء مسئول الكرنتينة، رجل تركى كان يرش الأمتعة بالبودرة، كانت عيناه واسعتين وكانت لحيته مثل لحية نابليون الثالث، ومن رقبته تدلت سلسلة بها هلال من المعدن، اتجه الرجل ناحيتى وقال لى:

إن فى أمتعتك ملابس ثمينة وفى حقيبتك حاجيات غالية لا أريد أن أرشها بالبودرة ...

وفى نهاية المطاف أوضح لى أنه يريد أن أعطيه "بقشيشا"، وهكذا فعلت، وبعد أن أعطيته بعض النقود، رأيته يقول لرئيسه إنه انتهى حالا من رش أمتعتى. مجموعة اليهود ناقشوه كثيرا، وفى النهاية وبعد طول نقاش كان عليهم أن يدفعوا له "بقشيشا" مثلى. لم يكن هذا بالأمر المريح على الإطلاق، فكيف يحدث هذا فى الأراضى المقدسة؟ ما زلت أشاهد أمامى بعض المناظر: جماعة اليهود تقوم اليوم أيضا بما قامت به من قبل أثناء أدائها الصلوات، بينما الأتراك كانوا يتمتعون بسماع الموسيقى المنبعثة من "الجرامافون"، وكانوا إذا ما شعروا بالجوع أكلوا الخيار، وبعد المغرب وبسرعة ينامون على سطح السفينة.

النزول من السفينة

فى الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الرابع والعشرين من مايو سمحوا لنا بالنزول من السفينة، شاهدت الرجل العجوز المسئول عن التدقيق فى جوازات المسافرين، كان يضع طربوشا أحمر على رأسه، حين شاهد جواز سفرى ظهرت علامات الدهشة على وجهه وصاح:

ـ آه، أنت يابانى؟

تسلمت جواز السفر ومضيت وسط الزحام...

ركبت "الحنطور" حتى وصلت إلى "فندق أورشليم"، أذكر أنه فى يناير من هذا العام زار يامادا تورانوسكيه القدس، وسمعت منه كلاما عن الرجل الذى يمتلك بيت الشرق فى القدس، اسمه هاينس مان، وقد زارنى هنا، كما قابلت أيضا بعثة تنصيرية تساعد اليهود، كان لدىَّ وقت لكنى لم أكن أرغب فى أن أشاهد بيت شيمون (سيمون)؛ ومن هنا أخذت القطار متجها إلى القدس.

هذا القطار تابع لشركة فرنسية، وهو يزدحم عادة بالركاب فى الكريسماس وعيد الفصح، وهذه الأيام ـ ونحن فى شهر مايو ـ لا يوجد أى زحام، ويقوم

القطار برحلة واحدة فى اليوم، ويتكون القطار من خمس عربات كلها درجة ثانية ولا يوجد فى القطار عربات للدرجة الثالثة، وفى كل كابينة سريران، أحدهما فوق الآخر، نظرت إلى المسافرين معى، نفس جماعة اليهود التى كانت تسافر معى بالسفينة، شاهدت رجلا مع زوجته لا أدرى جنسيتهما، وكان يرافقنى أيضا رجل أعمال شامى، وقس كاثوليكى يعلق على صدره صليبا فضيا يتدلى من رقبته، ويحمل فى يده مسبحة طويلة، وراهبة تغطى رأسها بغطاء أبيض وترتدى ملابس الراهبات السوداء.

منظر الطريق

بعد أن خرج القطار من حدود مدينة يافا انطلق وسط الصحراء، وبعد ذلك شاهدت أشجار فاكهة البرتقال وقد أزهرت أزاهير صفراء، كما شاهدت أشجار الليمون والتين والرمان والمشمش والعنب والنارنج، كانت الأشجار خضراء، شديدة الخضرة بشكل ملحوظ، ومن ورائها ظهرت حقول القمح تغطى المرتفعات والهضاب، وتمتد بحيث تبدو للناظرين كأنها تتصل بالسماء، وهناك هضاب ومرتفعات يسكنها اليهود، كان لونها أخضر يميل إلى الزرقة، وشاهدت أسرابا من طائر اللقلق بأعداد كبيرة جدا، يقول الناس إن هذه حقول "شالون".

لقد انتهى موسم الأزهار، إلا أنه أمكننى أن أرى بعض الأزهار البرية الصغيرة على طول الطريق تزين جانب خط السكة الحديد، وكنت أشاهد أحيانا قطعان الخراف التى ترعى الحشائش الخضراء. كان المنظر بديعا ... جاء إلينا بعض الأطفال يبيعوننا "التوت" الأحمر، اشتريت منهم قليلا من التوت، وجالت بخاطرى ذكريات الطفولة، فحين كنت فى السابعة أو الثامنة من عمرى وفى مسقط رأسى كنت أعشق تناول التوت، وما زلت أتذكر كيف تخضبت يداى وأسنانى باللون الأحمر... لقد هيّج منظر التوت بداخلى ذكريات أيام الطفولة.

وصل القطار بعد ساعتين إلى منطقة جبلية، شاهدت صخورا متفرقة على المرتفعات، لم يكن هناك وجود للماء فى المناطق المنخفضة، وصل القطار إلى مكان آهل بالسكان، شاهدت أشجارا متفرقة تنتشر فى الحقول وشاهدت مزارع

وخضراوات وبيوتا شيدت من الطين، وكان هناك طريق واسع تسير فيه عربات تجرها الخيول وتسير فيها الدراجات، ولمحت امرأة تحمل "شمسية" تقيها أشعة الشمس، تقطف بعض الأزهار، بينما كان بعض الأطفال يصفقون بعد أن شاهدوا القطار يقترب منهم، يا تُرى أين هذا المكان؟! وأين أنا الآن؟ كما لوكنت أحلم... أو خدعنى ثعلب مكار وجاء بى إلى هذا المكان دون أن أدرى... لكن لست أدرى حقا أين أنا... وبينما أنا غارق فى أفكارى انتبهت إلى وصول القطار على مشارف ضواحى مدينة القدس.

اثنا عشر يوما فى القدس وما حولها

الليلة الأولى

فى الساعة السادسة من مساء يوم الرابع والعشرين من شهر مايو غادر القطار بلدة يافا ومضى يقطع الطريق لأربع ساعات حتى وصل إلى القدس!!

ها هى القدس!.وصل مسئولو الفندق إلى المحطة لاستقبالى، كان من السهل عليهم أن يكتشفونى من بين جموع المسافرين، أنا المسافر القادم من الشرق حاملا فى اليد اليسرى "زكيبة" بنية اللون فيها أمتعة، وفى اليد اليمنى أحمل حقيبة جلدية قديمة، وأضع تحت إبطى شمسية أو عصًا اشتريتها من سنغافورة، والشعر طويل مع لحية طويلة إلى حد ما، أما البشرة فهى متسخة والجسم معتل من وعثاء السفر.

حين أجّرت عربة حنطور وركبت وسألنى السائق عن وجهتى، سمعته يتأوه حين سمع إجابتى... صدرت عنه آهة طويلة، بينما تقدم ناحيتى شاب أوروبى واقترح علىَّ أن أستقل عربة حنطور أخرى، كان هذا الشاب هو ابن أخ صاحب الفندق، ويدعى روبرت... شاهدت امرأة سمينة ضخمة تجلس فى عربة حنطور، ظننت أنها مسافرة وراكبة مثلى لكنى عرفت فيما بعد أنها زوجة صاحب الفندق.

مضت بنا عربة الحنطور فى طريق واسع بينما كانت الشمس تميل إلى الغروب، كنا متجهين إلى الناحية الشمالية لمدينة القدس، على جانب الطريق كنت أشاهد جدارا بارتفاع نحو ثلاثة أمتار، قال روبرت: هذا حائط جبل صهيون.

وبعد مدة شاهدت برجا قيل لى إنه برج داود، وهو موجود منذ عصر هيرودس، كان منظر القدس هذا يختلف عن المنظر الذى رسمته للمدينة فى مخيلتى أو المنظر الذى كنت أتوقعه أو حتى أفكر فيه، وصلت إلى الفندق الذى كان يقع بالقرب من منطقة معسكر الروس فى شمال غرب مدينة القدس القديمة[1] يبدأ موسم الحج إلى القدس فى الكريسماس ويستمر حتى أبريل، وقد انتهى موسم الكريسماس وعيد الفصح، لذا لم يتعد عدد نزلاء الفندق الاثنى عشر نزيلا.

عند الساعة العاشرة أطفأت ضوء الشمعة وبدأت النوم، كانت هذه أول ليلة لى فى القدس، بدأت الاستعداد للنوم، وقفت لأصلى للرب صلاة الشكر، وتطلعت من نافذة غرفتى، شاهدت النجوم كما لو كانت على صفحة بحر واسع، وبدأت أحدث نفسى وأتساءل: تُرى كيف كان هذا المنظر قبل ١٩٠٠سنة؟!

إلى بلدة أريحا

اليوم هو الخامس والعشرون من شهر مايو، ليلة أمس وجدت بعض المسافرين الذين ينوون الذهاب إلى بلدة أريحا، فاقترحت عليهم أن أرافقهم فى سفرهم، فرحبوا بى.

استيقظت مبكرا، واستأجرت عربة حنطور يجرها ثلاثة خيول، كانت جماعتنا تضم رجلا فى منتصف العمر، كان قادما من زنجبار فى إفريقيا حيث كان يقوم بالتبشير بالمسيحية هناك منذ ست سنوات، وعرّج على فلسطين ليزور القدس وهو فى طريق عودته إلى موطنه إنجلترا، كان يدعى "ماكثيه" [2]، وكانت تضم أيضا مواطنا من زنجبار، وهو قس يعمل بالتبشير فى وسط إفريقيا ويدعى "عبد الله"، كانت بشرته سوداء فاقعا لونها، وكانت شفتاه غليظتين، وشعر رأسه "أكرت"، كان عبد الله فى منتصف العمر تقريبا، ويتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة، وهدفه الوحيد من القدوم هنا هو مشاهدة الأراضى المقدسة مثلى تماما، فلم يكن لقدومى هنا أيضا من هدف غير هذا الهدف. قال ماكثيه: نحن الذين جئنا من إفريقيا وآسيا وأوروبا نمثل أبناء سام وحام ويافث، وكان السائق شاميا بينما كان مساعده بدويا، كان السائق الشامى يضع فى خصره مسدسا، وهو ضرورى فى منطقة أريحا للحفاظ على سلامتنا من قطاع الطرق.

---

(١) أطلق عليها المؤلف لفظ القلعة القديمة ويعنى بها القدس القديمة داخل الأسوار. (المترجم)

(٢) ورد الاسم بحروف الكتاكانا التى تكتب بها الأسماء غير اليابانية وربما كان النطق الصحيح "ماكثين". (المترجم)

بعد أن عبرنا بوابة دمشق انطلقنا شمال أسوار مدينة القدس[٣] اتجهنا ناحية الشرق... ناحية الوادى، حيث شاهدنا على اليمين سوق القدس، وشاهدنا أشجارا كثيفة مختلفة ومتنوعة، مضينا عبر دروب ضيقة ملتوية، حيث كنا نشاهد دور عبادة مختلفة الأشكال والمعمار، وشاهدنا أسوارا كثيرة أسفل الهضاب والمرتفعات، ذكر ماكئيه أن بعض المناطق المحاطة بالأسوار ملك جماعة المسيحيين اللاتين، لقد سبقنى ماكئيه إلى هنا، فقد مضى عليه عشرة أيام، لذا يعرف المنطقة جيدا، كان الطريق يمضى بالقرب من مقابر قديمة أحيانا وحديثة أحيانا أخرى، وبعد مدة وجدنا أنفسنا بين بيوت بنيت بالطين وطليت باللون الأبيض، يتراوح عددها بين عشرين بيتا وثلاثين، يطلقون عليها "بيت آنيا"، وقررنا أن نزورها أثناء عودتنا، ومضت الخيول تجر العربة دون توقف عبر جبال بركانية، كان الطريق غير ممهد ومملوءا بالحجارة، ولا وجود لخضرة ولا ماء، إلا أننى كنت ألمح بعض الأزهار البرية مثل أزهار الخشخاش وغيرها، وكنت أشاهد أحيانا السحالى بلونها البنى التى تشبه صغار التماسيح.

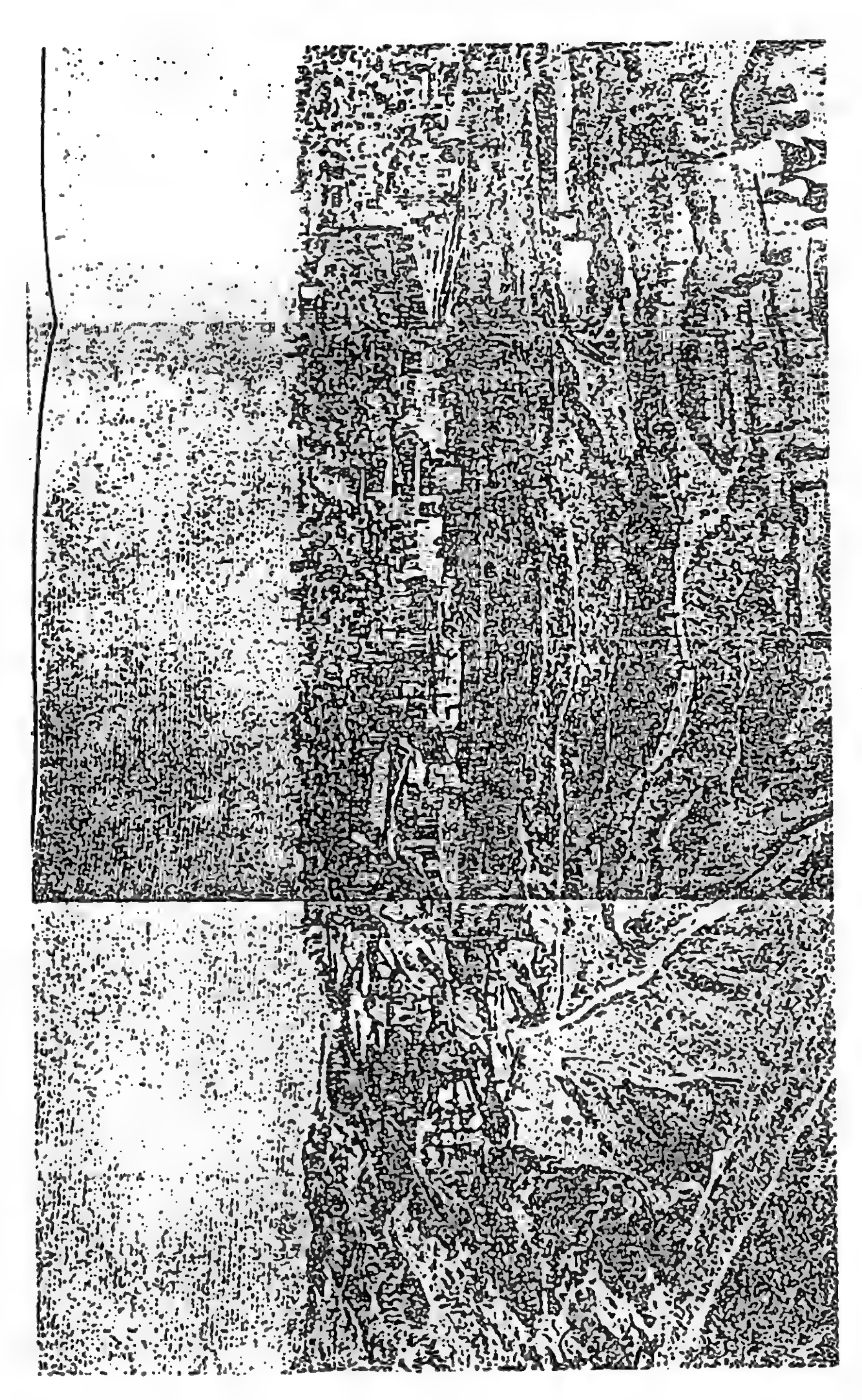
بعد أن عبرنا عين ماء صار الطريق أكثر وعورة وخشونة، كما صار أكثر التواء وانحناء، كان يصادفنا فى الطريق بعض أهالى المنطقة الذين يمتطون ظهور الحمير، ويحملون البنادق ربما للدفاع عن أنفسهم ضد قطاع الطرق، تذكرت "السامرى" الصالح [٤] لأننى وجدت مقهى كتب عليه (السامرى الطيب) فاسترحنا فيه قليلا، ثم تابعنا رحلتنا، وبينما كنا نمر بين الجبال شاهدنا منظر البحر الميت، نزلنا من العربة، ونظرنا أمامنا فبدا لنا المنظر كما لو كان هناك شبح فاغرا فاه لنا مثل شبح دانتى فى الكوميديا الإلهية[٥].

---

(٣) أطلق عليها المؤلف دائما لفظ القلعة، ربما لأن القدس كانت محاطة بالأسوار. (المترجم)

(٤) انظر تفسير إنجيل لوقا: ١٠. (المترجم)

(٥) الذى يطهر المذنبين من ذنوبهم. (المترجم)



بلدة أريحا (منظر عام)

وادى أريحا

وادى أريحا واد منخفض يبلغ انخفاضه عن القدس نحو ٢٧٠٠ ثلاثة آلاف وسبعمئة قدم وعن مستوى البحر نحو ١٢٠٠ ألف ومئتى قدم، وهذا مكان لا مثيل له فى العالم من حيث الانخفاض، هدوء شديد وسكينة موحشة، ومنظر أقرب إلى الكآبة منه إلى أى شىء آخر(٦)، كان يمكننى أن ألمح من بعيد جبلا أحمر اللون ربما يبعد نحو ثلاثة أميال، وفى مقابله ومن الناحية الجنوبية يقع وادى الأردن الذى يمتد إلى البحر الميت. تغطى النباتات الخضراء وادى نهر الأردن، وهى نباتات شديدة الاخضرار المشوب بالسواد، وحافة الوادى تقع على البحر الميت، وهناك عدد محدود من البيوت المحاطة بأشجار الجوز... كان المنظر موحشا، هنا يكمن تاريخ أكثر من خمسة آلاف عام، أتعجب فهل يا ترى عاش أهل سادوم وعامورة هنا (٧) ماذا عن إبراهيم ؟ وماذا عن قوم لوط؟ وماذا عن جوشوا، وزكريا وابن مريم؟ أين ذهب هؤلاء؟

وسط هذا المنظر المملوء بالهضاب والجبال، والمملوء بالماء والسماء الممتدة إلى ما لا نهاية، وجدت نفسى أفكر فى مأساة العقاب الشديد الذى سيحيق بالمذنبين. ما زالت الخيول تضرب بحوافرها الأرض، تسحب العربة فى تناغم غريب عبر الدرب المنخفض، حتى وصلنا إلى نهر صغير، ثم دخلنا قرية أريحا "العصر الحاضر" وألقينا الرحال فى فندق الأردن.

استغرقت الرحلة منذ غادرنا القدس نحو ثلاث ساعات، كانت حرارة الوادى شديدة جدا، تذكرت البحر الميت... أخذت "تعسيلة" فقد كنت مرهقا، واستيقظت من غفوتى، ورأيت ألا أخرج حتى تتكسر شدة الحر.

البحر الميت

كما ذكرت، استيقظت من غفوتى، كانت الساعة الثانية بعد الظهر، ركبت عربة الحنطور التى مضت بنا خارج بلدة أريحا فى رحلة استمرت عبر طريق ضيق،

---

(٦) حين زار توكوتومى كينجيرو لوقا أريحا كانت وقفًا وإمارة تابعة للقدس، وكان يفد عليها الكثير من المستكشفين الأوروبيين والبعثات التبشيرية، وكانت أعمال التنقيب قد بدأت فى تل السلطان، واكتشفت أديرة القديس جورج ويوحنا المعمدان سنتى ١٩٠١ و ١٩٠٤على التوالى، وقد وصل كاتبنا سنة ١٩٠٦م. (المترجم)

(٧) المدينتان اللتان أحرقهما الله بالنار كما جاء فى سفر التكوين ١٩. (المترجم)

ورغم وجود أشجار فإننا نادرا ما كنا نشاهد الحشائش الخضراء، صار الماء بلون الطين، وشاهدت فى بعض الأماكن أشياء بيضاء متناثرة لا أدرى ما هى. وصلنا عند الجزء الشمالى للبحر الميت، ووقفت بالقرب من شاطئ البحر الميت أنظر أمامى من الشرق إلى الجنوب على امتداد نحو ثلاثة أميال، ومن الشمال إلى الجنوب على امتداد نحو عشرة أميال، فى الزمن القديم كان هذا الماء على ارتفاع١٠٠ مئة قدم فوق سطح البحر، لكن الآن صار أقل من سطح البحر١٣٠٠ ألفًا وثلاثمئة قدم[٨] راقبت لون الماء ووجدته أخضر فيه صفرة، كما أنه لم يكن صافيا، وهو كثيف لاحتوائه على مكونات زيتية، أما الطعم فهو مالح جدا وفيه مرارة، وإذا ما غسلت به يدى أشعر بأنها تحمل بقايا زيت أو دهن، وقد سمعت أنه لا يوجد فى هذا الماء أى نوع من أنواع المخلوقات، ولذا تعجب عبد الله حين التقطت سمكة صغيرة، إلا أن القس "ماكثيه" تدارك الأمر قائلا بأن هذا النوع من السمك قدم من نهر الأردن العذب، وقد ضل طريقه ودخل خطأ فى البحر الميت حيث مات بسبب ملوحة الماء ومكونات عناصرها.

كان منظر البحر الميت فى غاية الجمال، لكنه أيضا كان مخيفا، يقال إنه دخل هنا نحو ٦٥٠ ستمئة وخمسين ألف طن من الماء العذب فى يوم ما ومعظمها تبخر، وبالتالى لا تبقى إلا المواد الصلبة. هذا ما كان يعرف قديما باسم "بحيرة لوط" بحر ماؤه دون حياة، فهو بحر يقتل المخلوقات، وجال خاطرى هنا وهناك وبدأت أفكر فى أمور كثيرة ... فهناك بحر ميت أيضا فى فؤاد الإنسان ، وهناك بحر ميت فى تاريخ البشرية، ولنفكر فى بنى إسرائيل كما لو كنا نشاهد شيئا مخيفا، إنهم مثل البحر الميت!

ما زلت أتطلع إلى هذا المنظر: الجبل ناحية الشرق، ذات مرة ألقى موسى بعين الإيمان والرجاء آخر نظرة على كنعان، يسمى الجبل جبل نيبو[٩]، ومن الناحية الغربية للجبل ظل المسيح فوق الصخرة أربعين يوما[١٠].

---

(٨) يبلغ طوله ٤٢ ميلا وعرضه عند أوسع مسافة ١١ ميلا.

(٩) يقع فى الأردن، ويرتفع ٨٠٠ متر عن سطح البحر، ومنطقة الجبل تطل على البحر الميت، ويقال إن فيه مقام النبى موسى (عليه السلام) فقد مات ودفن فيه. وقد ورد فى التوراة "اصعد إلى جبل عباديم هذا جبل نيبو الذى فى أرض مواب الذى قبالة أريحا" ويعتقد المسيحيون أن النبى موسى (عليه السلام) وقف على جبل نيبو مع قومه ورأى الأرض الموعودة التى لم يصلها، وأنه توفى ودفن (عليه السلام) فى جبل نيبو. (المترجم)

(١٠) ذكر المؤلف عبارات رمزية استمدها من سفر الخروج، فكنعان طبقا للإنجيل هى الأرض التى وعد بها الرب إبراهيم ونسله ، وجاء فى سفر الخروج أيضا: ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة فى

بين الماضى والحاضر ولآلاف المرات تكرر الموت، وفنت أجيال من بعد أجيال، هذا وادى الموت، وادى البحر الميت، لقد رسم هيرمان هونت صورة لعملية الفداء scapegoat تستحق الرؤية، وقد مضى على ذلك نحو خمسين عاما[١١] الآن فى هذه المنطقة أشاهد كوخا مصنوعا من السعف والغاب مسقوفا بالقش، وأمام الكوخ دجاجات تنقر الأرض بحثا عن الحبوب، بينما نُشِرت شبكة صيد!

نهر الأردن

انطلقنا من البحر الميت مرة أخرى، ومضينا على طريق ضيق تحفه أشجار لا أعرف أسماءها وحشائش خضراء، وبعد نصف ساعة أوقف السائق عربة الحنطور بالقرب من نهر، وقال السائق الشامى موجها حديثه لنا:

هذا هو نهر الأردن، يجرى الماء فى النهر بسرعة كبيرة مثل حرف كو(く) فى اللغة اليابانية، مثل السهم وبانحناء شديد، فى الجهة المقابلة شاهدت أشجارا أزهارها بيضاء، وأعشابا امتدت سيقانها وتمايلت بفعل الرياح، وعلى حافة النهر امتد نبات البردى بكثرة، كما شاهدت أشجار الجوز، كانت الأعشاب الطويلة تتمايل وتتموج فى حركات جميلة تعطى انطباعا بأن نهر الأردن يحمل بين ضفتيه ماء الحياة، فالمسيح تطهر بهذا الماء، لكن الماء هذه الأيام لم يعد صافيا، ولم يعد رقراقا، ولم يعد شفافا، طاله التلوث، سألت مرافقىّ عما إذا كان المسيح (عليه السلام) قد تطهر بهذا الماء أم لا؟ فقالوا:

نعم تطهر، والناس الذين يأتون للحج إلى القدس يتطهرون أيضا بهذا الماء.

عندئذ خلع عبد الله ملابسه بسرعة، وقفز إلى النهر وظل يسبح حتى وصل إلى الضفة الأخرى، وأخرج ماكئيه زجاجة صغيرة من جيبه وملأها بماء نهر الأردن ليحملها معه هدية، أما أنا فاكتفيت بمشاهدة هذا الماء الذى لم يعد كما كان شفافا، ومع أن الماء لا ينطق بالكلمات فإننى شعرت بصدى كلمات تخاطبنى تتردد فى داخلى:

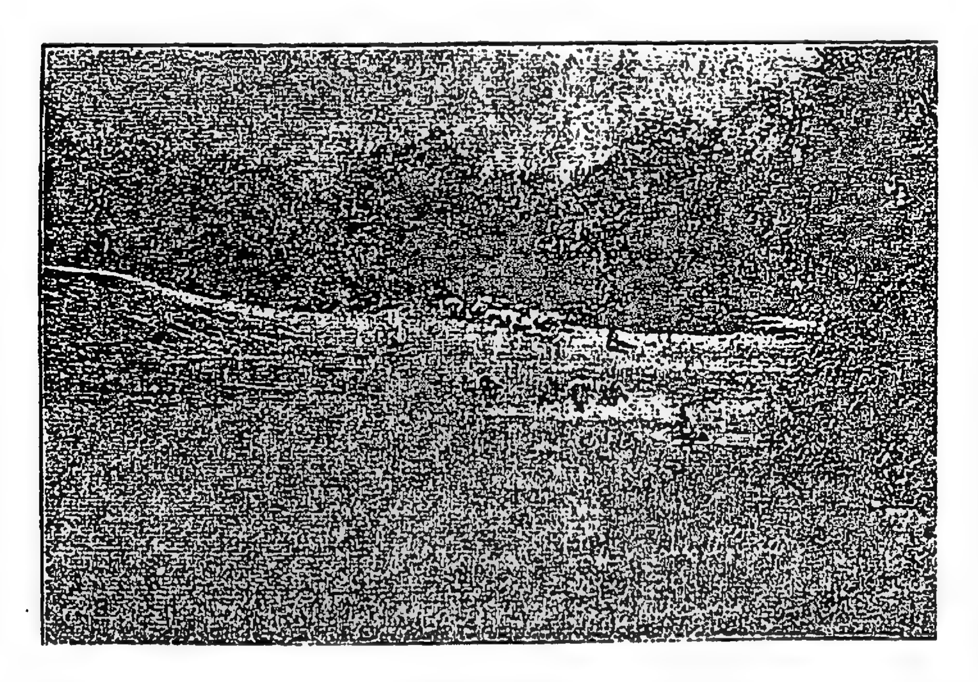
---

(١١) طبقا للدراسات المسيحية يشير المصطلح scapegoat إلى فداء المسيح الذى تحمل ذنوب البشرية، حيث سيق إلى البرية خارج المدينة بأوامر من الكهنة الكبار. (انظر يوحنا ١: ٢٩) تذكر التفاسير المسيحية أنه كانت خطيئة الشعب هى الخلفية والمناسبة لإعطائهم هذه العطية، الماء من الصخرة التى تمثل النعمة الإلهية للإنسان الذى لا يستحق. فبالنعمة نزل القضاء على يسوع المسيح لكى ينزل الروح القدس على المؤمنين. (المترجم)

لماذا جئت هنا؟ وماذا تريد أن تشاهد؟ لماذا جئت إلى نهر الأردن هذا؟

افتح عينيك! افتح عينيك!

ظل صدى هذه الكلمات يتردد بداخلى، أنا حقا أعمى البصيرة، أنا فقط أريد جمال المظهر، إنه لأمر مخجل، أتمنى لو فقئت عيناى لأصبح أعمى بحق! وعندها أرى الجمال الحقيقى... مددت يدى ولمست الماء، بل وضعتها فى النهر، وشعرت أن الماء يجرى فى صمت، بينما كان نبات البردى ينحنى كأنه يؤمن على أفكارى ويقول: "نعم! نعم! نعم!" مع كل انحناءة.



وادى الأردن

بعد عشر دقائق نودى على لأركب العربة معْ رفاقى بينما صدى الكلمات كان لا يزال يتردد فى أذنىَّ:

- افتح عينيك وافتح بصيرتك!

آه، يا نهر الأردن ! إنك تمضى وتجرى إلى الأبد!

القمر عند الغروب

من الأرض المنخفضة مضت الخيول تجرُّ بنا العربة، وصعدنا طريقا من بعد طريق، لم يكن الأمر سهلا فالطريق كان مملوءا بالحجارة الصغيرة، ناهيك عن الجراد الذى انتشر فى الجو بكثرة، وجعل السائق يضرب الخيل بسوطه دون توقف تقريبا؛ يريدها أن تسرع أكثر فأكثر، وبينما هو كذلك أشار إلى اثنتى عشرة قطعة حجر كأنها تماثيل، وقال هذه صنعها جوشوا ، وكانت هناك كنائس وبيع وأديرة للأرثوذكس اليونانيين والكاثوليك اللاتين وغيرها من طوائف المسيحية الأخرى، شاهدت راهبا يمشى تحت أشعة الشمس المحرقة، ذكرنى هذا الراهب برهبان العصور الوسطى.

بعد ساعة تقريبا دخلنا بلدة أريحا، وهى قرية صغيرة لا يعيش فيها كثير من الناس، لهذا فهى هادئة، إذ كان يمكننى أن أسمع خرير الماء، بينما كنت أمتع ناظرى بمشاهدة الأشجاراليانعة والنباتات والأعشاب الخضراء، شاهدت نباتات كثيرة تنتمى إلى فصيلة النباتات الاستوائية، وشاهدت أشجار الجوز وأشجار التوت ونباتات الدِّفلى والحشائش المائية، كما شاهدت أشجار العنب والرمان، وكانت جميعها مثمرة ثمارا يانعة حان قطافها.

كان الناس يطلقون على هذا المكان فى يوم ما قرية النخيل، لكن اليوم لا توجد أشجار النخيل بكثرة كما كان الأمر فى السابق، وأريحا الحقيقية كانت قريبة من الجبل وقد شاهدنا آثارها القديمة، وعدنا ثانية إلى فندق الأردن.

تحولت حرارة النهار فى المساء إلى برودة... أكتب بعض الخطابات وأنا أجلس فى الحديقة، هناك شجرة ضخمة، شاهدت من حولها أسرة صغيرة مكونة من أعداد من الدجاج مع فراخها، ومن خلف الحديقة توجد أشجار البوص الرفيعة، وهناك شجيرات الورد البلدى، بينما نسمات الهواء البارد تهب تملأ الحديقة بعبير الورد ورائحته الذكية... حين رفعت رأسى شاهدت فوقى سماء قاتمة الزرقة، وكان القمر ربيعا فى أوله إذ ظهر نصفه فقط مثل معدن خام يميل إلى صفرة الذهب. وبينما كان كوكب الزهرة يتلألأ مثل نقطة الزئبق الرجراج، صفق عبد الله وصاح مشيرا إلى كوكب الزهرة:

ـ انظروا إنه قمر جديد، إنه قمر جديد فى سماء القدس!

بعد تناول طعام العشاء أويت إلى الفراش، سمعت صوت بومة تصدر صوتا كأنه الأنين... إنها ليلة مقمرة فى أريحا، سمعت صوت إطلاق عيار نارى واحد، بعدها ساد الصمت، وكان صمتا بلا حدود، كنت بين اليقظة والنوم، عيناى كانتا على وشك الوصول إلى مرحلة الرؤيا! وأى رؤيا تلك! يا للخجل! ليلة مقمرة فى أريحا أروع من أى قصيدة شعرية.

الماضى والحاضر فى بيت عانيا (بيتانيا)

فى الساعة الرابعة من صباح يوم السادس والعشرين من شهر مايو ركبنا عربة الحنطور ومضينا عبر الوادى، وحين وصلنا إلى منحدر لفت نظرى من ناحية الشرق نور كوكب الزهرة فى السماء، وبسرعة كبيرة طلعت الشمس فوق جبل الأردن، كان هناك ضباب فى سماء الوادى، بينما البحر الميت كان لا يزال نائما، وشاهدت بقايا دخان، فيبدو أن بعض الناس كانوا قد أشعلوا النيران هنا، ما أجمل شروق الشمس، فمنظر الشروق ينم عن شجاعة كبيرة ، حين تتوارى الظلمة أمام شجاعة النور.

أغادر الآن أريحا متجها إلى القدس، كنا نمضى فى طريق صاعد، واسترحنا عند مقهى (السامرى الطيب) التى مررنا بها من قبل، وعند الساعة الثامنة نزلنا باتجاه "بيت عانيا" [١٢] شاهدت ما بين ٢٠ بيتا إلى ٣٠ مبنية بالطين اللبن ومطلية باللون الأبيض، وهى مغبرة بالأتربة. سألت امرأة طاعنة فى السن إن كان لديها مفتاح "بيت مريم المجدلية"، فردت بالإيجاب، وأشارت إلى أن هذا هو البيت، بيت بسيط جدا، لا يحتوى على أى شىء، حيطان من طين، وحجارة هنا وهناك، والبيت بلا سقف، أشجار الرمان مع شجيرات أزهار برية تنتشر فى المكان، كنت أحاول أن أشاهد أين قبر" العازار" الذى كان المسيح قد أحياه بعد موته، فحملت شمعة، وكان علىَّ أن أهبط درجات سلم لأعرف أهذا قبر حقيقى أم مجرد خدعة؟ ظللت أستطلع المكان للحظات ثم صعدت، وأخذت أتطلع حولى من جديد، وأدقق النظر، لكنى لم أتمكن من أن أرى أى جزء من مدينة القدس، لأن الجبال كانت تحول بينى وبين ذلك. فى الناحية الجنوبية شاهدت مرتفعات وهضابا وعرة، تعلو وتهبط مثل أمواج البحر، من بيت لحم إلى وادى اليهود.

---

(١٢) وردت فى الإنجيل والتوراة بيت عانيا وبيتانيا، وهكذا تكتب أيضا Betania، ويطلق عليها أيضا الميزرية نسبة إلى "العازار" الذى أحياه المسيح بعد موته ودفنه بأربعة أيام، وقد أشار المؤلف فى السطور التالية إلى أنه كان يود أن يشاهد القبر لكنه يشك فى ذلك ولا يصدق. (المترجم)

يا بيت عانيا (بيتانيا)! لقد قدمت فى أوقات كثيرة وسادة أثيرة لراحة أبناء البشرية، لا يمكن أن أشاهد ما يجعلنى أتخيل صورة مريم المجدلية هنا، ولا يمكن أن أجد من أهل هذه القرية الآن من يجعلنى أتصور أو أتخيل صورة مريم المجدلية، لكنى أشاهد كلبا يرقد فوق سطح بيت مستوٍ، ودجاجة تسعى لجمع أفراخها، بينما يقف طفل نحيف يمص إصبعه، ورجل عجوز مع امرأة عجوز يتطلعان إلى الزائرين القادمين من بعيد!

بيت عانيا! اسمك سيورث للعالم الآخر مع مريم المجدلية.

رجعت الفندق فى الساعة التاسعة من صباح اليوم نفسه.

القدس فى الوقت الحاضر (عام ١٩٠٦م)

يبلغ سكان مدينة القدس فى الوقت الحاضر نحو ثمانين ألف نسمة، إلا أن هذا العدد يرتفع فى موسم الحج ليصل إلى نحو مائة ألف نسمة، ستين بالمائة من اليهود والآخرين من المسلمين والأوروبيين، وفى شمال غرب القدس المسورة يعيش الأوربيون واليهود، وهناك مستشفى ومدارس ومبانى القنصليات والسكن، كما توجد مطاعم، ودار للأيتام، وفنادق خصصت للسياح القادمين للحج، بعض المناطق السكنية كانت مزدحمة مبانيها وضيقة شوارعها، بينما فى مناطق أخرى توجد مساحات فارغة كثيرة طبقا لطبيعة الأرض وجغرافيتها، ولاحظت أن المساكن مبنية أعلى المرتفعات، بينما بنيت أخرى فى مدرجات منخفضة، وهكذا.

معظم السكان يعيشون داخل المدينة فى المناطق الضيقة، فالقدس أساسا قلعة مسورة بنيت فوق الجبال على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وفى الناحية الشمالية الغربية توجد جبال بركانية، وتوجد جبال غير مرتفعة فى الناحية الشمالية الغربية مثل جبل صهيون[١٣] وهو فى الجنوب الغربى، وجبل موريا[١٤]، وهناك جبل "أكر" حيث توجد كنيسة القيامة ميلاً وجبل "نبريتا"، والمسافة إلى البحر الأبيض المتوسط تبلغ اثنين وثلاثين ميلا، والمسافة حتى البحر الميت تبلغ أربعة عشر ميلاً.

---

(١٣) ويعرف أيضا بجبل داود. (المترجم)

(١٤) هو الجبل المقام عليه المسجد الأقصى.

يقال إن الإمبراطور الرومانى تيتوس هجم على المدينة واحتلها، وكان قدر المدينة مثل قدر أبناء إسرائيل صعودا وهبوطا، حتى جاء الإسلام، فتمكنوا لأول مرة من دخول القدس بعد أن كان الرومان قد منعوهم من ذلك، ثم كانت حروب الصليبيين، واستمر التاريخ صعودا وهبوطا... لا أشاهد هنا غير السماء والجبال ثم الأسوار التى صنعها الإنسان من الصخور والأحجار، لا يوجد غير ذلك، وقد أسس سور القلعة خارج مدينة القدس فى العصور الوسطى[١٥]، وقطره الدائرى يبلغ نحو ميل ونصف، وارتفاعه ٣٨ قدما ونصفا، وعليه ٣٤ برجا، وهناك على الأسوار بوابات ثمانية: البوابة الشرقية وبوابة ستيفانو وفى الشمال بوابة هيرودس وبوابة دمشق وفى الشمال الشرقى البوابة الجديدة وفى الغرب بوابة "يوتسوبا؟!" وفى الجنوب بوابة صهيون وأيضا بوابة التطهير[١٦] . ويقال إن المساحة الكلية للمدينة نحو٢١١فدانا، من بينها ٣٦ فدانا فيها بقايا الأديرة التى بناها الرومان، وداخل هذه المساحة يوجد نحو٢١١ مسجدا للمسلمين، وهناك أحياء منفصلة خاصة بالمسلمين واليهود والنصارى والأرمن، ولكل منهم دور عباداتهم الخاصة وأماكن تجمعهم، بالإضافة إلى الثكنات العسكرية والمدارس والمحلات التجارية والأسواق، فلكل من هذه الطوائف حياتها الخاصة منفصلة تماما عن حياة الآخرين، والطرق تمضى ملتوية صعودا وهبوطا وتمضى شمالا ويمينا بشكل معقد كأنها متاهة "القدس".

قبر الخلاص

فى المساء أنوى زيارة كنيسة القيامة وزيارة قبر الخلاص[١٧]، ولا بد أن أشحذ ذاكرتى حتى لا أنسى الطرق الملتوية فأضيع فى متاهة القدس، علقت فى ذاكرتى

---

(١٥) بنى السلطان العثمانى سليمان القانوى السور الحالى لتحديد القدس القديمة جغرافيا سنة١٥٤٢م.

(١٦) ورد فى كتب وصف القدس أن للسور أربعة أبواب مغلقة، وسبعة مفتوحة هى: باب الخليل، والباب الجديد، وباب العمود، وباب الساهرة، وباب المغاربة، وباب الأسباط، وباب النبى داود. (المترجم)

(١٧) ينقسم قبر الخلاص من الداخل إلى غرفتين، الغرفة الخارجية عبارة عن دهليز لإعداد الميت، ويقال لها كنيسة الملاك، أما المدخل الصغير المغطى بالرخام فهو الباب الحقيقى للقبر الأصلى والذى تم إغلاقه بحجر إثر موت المسيح كما يقول الإنجيل. وفى وسط الدهليز نجد عمودًا قصيرًا يحمى تحت الزجاج قطعة أصلية من الحجر المستدير الذى سد باب القبر. ويوصل إلى القبر باب ضيق، فتجد إلى اليمين مقعدًا من الرخام يغطى الصخرة الأصلية التى وضع عليها جسد يسوع.

جرسا حتى لا أنسى التواءات الطريق، ورغم هذا ضعت، وضللت الطريق، فرجعت أدراجى إلى المكان الذى بدأت منه، ووجدتنى أضيع ثانية وسط المتاهة، وهكذا استعنت بالمرشد ليدلنى على الوصول إلى كنيسة القيامة، وقد زرت دير مار إبراهيم، وهو خاص بالروم الأرثوذكس، وقيل إنه بنى فى عهد قسطنطين، وله أهمية لمعظم نصارى العالم[١٨].

دفعت فرنكا من أجل شمعة، وتبعت المرشد الذى شرح لى كثيرا من الغرائب... كنت كمن خدعه ثعلب مكار! المكان أشبه بكهف صخرى، الأرضية من الرخام الذى يبرق بلون فضى وبلون ذهبى، وكأن الإنسان فى حلم أو كأنه واقع تحت تأثير سحر، توجد قاعة للصلاة، وهناك قاعة من داخلها قاعات أخرى، أو هى دهاليز، زحفت لأدخل إلى تلك القاعات الصغيرة، ولأصل إلى قبر المسيح، شاهدت إحدى الفتيات تقبل غطاء القبر، وهو من الرخام الأبيض، وفى السقف علقوا شمعدانًا، وهذه كلها جلبها الروم الأرثوذكس، وهناك شموع للأرمن والأقباط، شاهدت خمسين قسيسا من الروم الأرثوذكس يرتلون التراتيل تجاه القبر ويرفعون أياديهم اليمنى تجاه الفم والرأس، وكانوا يدورون فى حلقات[١٩]، وشاهدت المكان الذى أخذ فيه إبراهيم إسحاق ليقدمه ذبيحة[٢٠]، وشاهدت قبر آدم وما يطلقون عليه مركز العالم، وتسلقت عشر درجات أو اثنتى عشرة درجة

---

(١٨) وقد سمى بهذا الاسم تيمنا بالتقليد المسيحى الذى يقول إن إبراهيم (عليه السلام) جاء إلى هذه الصخرة ليقدم ابنه قربانا، ويوجد فى الكنيسة مذبح وشجرة زيتون علق الجدى بفروعها. وتوجد بئر عظيمة تحت الدير، كما توجد إلى اليمين كنيسة مار يعقوب للأرمن وكنيسة ألقديس ميخائيل للأقباط، وإلى يسارها ثلاث كنائس مكرسة للقديس يعقوب والقديس يوحنا والشهداء الأربعين، والدرج الذى إلى اليمين قبل الدخول إلى الكنيسة يؤدى إلى معبد "سيدة الأوجاع" ويقال له أيضًا كنيسة الإفرنج، وهى للآباء الفرنسيسكان الذين يحتفلون فيها بالقداس الإلهى كل يوم، وتحت هذه الكنيسة تقوم كنيسة أخرى مكرسة للقديسة مريم المصرية. (المترجم)

(١٩) وتحتضن المدينة المقدسة خورس الروم الأرثوذكس ويقع مقابل القبر المقدس، ويحتل الجزء المركزى من البازيليك كلها. وكان فى الماضى خورس الآباء القانونيين أيام الصليبيين. وكذلك كنيسة الأقباط، تقع خلف القبر المقدس فى مؤخرته حيث حفر فيه هيكل. وتوجد كنيسة السريان الأرثوذكس فى آخر الرواق مقابل هيكل الأقباط، وهنالك ممر ضيق بين العمودين يؤدى إلى قبر محفور فى الصخر يعود إلى أيام المسيح. (المترجم)

(٢٠) دير مار إبراهيم للروم الأرثوذكس، وقد سمى بهذا الاسم تيمنًا بالتقليد المسيحى الذى يقول إن

لأشاهد فجوة فيها صليب مغطى بالفضة، نظرت من الفجوة إلى أسفل فشاهدت الأرضية تبرق بفعل الشموع، أخذت شمعة ومضيت لأشاهد غرفة صغيرة مثل الكهف، شاهدت صورة ماريا مرسومة وكأنها تنظر إلىَّ من وسط الظلام، ومن الخلف كانت هناك حجرة تصل إليها جماعات العباد من أجل الصلاة، شاهدت هذا المنظر رغم الظلمة، ورجعت مرة أخرى إلى المكان الذى يطلقون عليه مركز العالم[٢١] حيث الأضواء الساطعة بفعل الشموع الكثيرة، كانت الأنوار تتموج، فتجعل من الأضواء بين الشموع قطعا من الأحجار الكريمة، تمكنت من رؤية صورة للمسيح ومريم وتلامذته، وسمعت صوت تراتيل الكتاب المقدس، الذى كان مثل أمواج تمضى فى تنغيمات عذبة وسلسة، وكان صدى صوت الترتيل يتردد فى الكنيسة كلها، كما لو كنت فى حلم، تذكرت قول أحد الحكماء الرومان بأن الناس الطيبين يعيشون بإيمانهم بالله.

حائط المبكى (البراق)

سألت طفلا ليرشدنى إلى حائط المبكى[٢٢]، فدلنى على الجانب الشرقى، كان حائطا عاليا من خلفه توجد مبان، يطلقون عليه حائط المبكى، يبلغ ارتفاعه نحو ١٦ مترا وطوله نحو ٤٧مترا، وأسفل الحائط حجر كبير بحجم مترين ونصف عليه كتابات بالعبرية، وهى عبارات للصلاة ، كانوا يضربون الحجر بالمسامير كما لو كانوا يريدون له أن يحيا أو يستيقظ من ثباته، وفى الحائط شاهدت بين الأحجار أعشابا نمت وورودا متفرقة، بالنسبة لى كان هذا المنظر يبعث على

(٢١) هيكل سليمان المزعوم، والذى له مكانة خاصة فى العقل اليهودى، فهو يقع فى مركز العالم، وقد بُنى فى وسط القدس التى تقع فى وسط العالم، وقدس الأقداس يقع فى وسط الهيكل، فهو بمثابة المركز، وأمام قدس الأقداس حجر الأساس (النقطة التى عندها خلق الإله العالم). (المترجم)

(٢٢) الاسم الحقيقى عند المسلمين حائط البراق نسبة إلى الدابة التى ركبها الرسول (ﷺ) عند إسرائه من مكة إلى المسجد الأقصى، حيث ربط البراق فى حلقة عند هذا الحائط ودخل المسجد وصلى بالأنبياء ثم عُرج به إلى السماوات العلا ، والحائط جزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى، وهو وقف إسلامى، وقد اعتبره اليهود مصلى منذ بداية القرن السادس عشر، وزادت أهميته عندهم فى القرن التاسع عشر، وحين زار توكوتومى كينجيرو القدس كانت السلطة العثمانية قد سمحت لليهود المقدسيين بأداء بعض الطقوس الدينية قبالة الحائط، وقد حاول بعض اليهود شراءه من الدولة العثمانية إلا أنهم فشلوا. (المترجم)

الأسى والحزن، فمعظم اليهود يتجمعون يوم الجمعة فى هذا المكان، ويتذكرون ماضيهم وينخرطون فى البكاء على حاضرهم، وبعضهم يقوم بتقبيل الحائط أو السجود على الأرض والبكاء وهم يرتلون تراتيل خاصة:

"عند الحائط نجلس ونصلى من أجل الماضى ولمن ماتوا، نتذكر صهيون من أجل أن يجمع أبناء إسرائيل، أسرعوا لإنقاذ صهيون... سوف تعود مملكة إسرائيل وترجع إلى صهيون، السلام يحل على صهيون".

قدم قليل من الناس اليوم، شاهدت أربع نساءٍ أو خمسًا يجلسن وينشدن بعض التراتيل. كنيس اليهود ليس فيه زخارف أو ألوان ذهبية، مبنى بسيط، التقيت برابى يضع على رأسه قبعة صوفية مميزة، ثم اتجهت إلى السوق حيث شاهدت الخراف المذبوحة والمعلقة يغطيها الذباب لدرجة أنها صارت كلها بلون أسود، كما شاهدت عجوزا يجلس على الأرض أمام دكان له مثل الكهف يخيط نعلا، كما شاهدت قطيعا من الماعز.

كان كل شىء قذرا كأن القذارة تتحرك هنا وهناك... حين تلقى بالنظرة الأولى على القدس من خارج أسوارها تتعجب بالطبع، لكن مشاهدة المدينة نفسها داخل الأسوار تجعلك تود لو تحرق المكان كله .

صليل الجرس

اليوم هو السابع والعشرون وهو يوم إجازة، سمعت صليل الأجراس فى الصباح الباكر، فخرجت إلى الشرفة لأشاهد المنظر، كانت شرفة غرفتى مواجهة لجبل الزيتون، وكان يمكننى أن أشاهد سور القدس الشمالى، وهو يمضى بشكل انحدارى غير مستو، ومن ناحية جبل الزيتون كان يمكننى أن أرى جزءا من الجبل المحيط بالبحر الميت، أشعة الشمس المنبعثة من خلف جبل الزيتون ملأت الآن الحديقة، وتحت قدمى تناثرت ثمار التين، بينما كنت أستمع لشقشقة العصافير. ما زالت أجراس الكنائس تدق، وصدى صليلها بدا كأنه يحرك نسمات جو الصباح الذى امتلأ بالنور، كان صوت أجراس الكنيسة الروسية يأتينى من بعيد، بينما صوت الجرس المثبت فوق كنيسة القيامة بقبتها المستديرة والصليب الواضح

جدا كأنه قريب منى يدق بصوت عال، لكنى لم أكن أدرى من أين تصدر كل هذه الأصوات التى كانت تأتينى من الكنائس والأديرة المتباعدة والمتقاربة الموجودة فى هذه النواحى؛ فقد كانت أصوات الأجراس الشديدة تأتينى من الكنائس القريبة بينما الأصوات الضعيفة تأتينى من تلك الكنائس البعيدة، وكل هذه الأصوات التى يحمل كل واحد منها رنينه المميز، توحدت معا وصارت صوتا واحدا متناغما صاعدا إلى السماء. آه! يا له من صباح جميل! ما أجمل صوت الأجراس!

مالك القدس

من شرفة غرفتى شاهدت رايات وأعلاما ترفرف فوق مبان عالية بالقرب من مسجد عمر، حيث توجد أيضا كنيسة حولها مقابر عليها صلبان، بالنسبة لليهود من المعروف أنهم فقدوا الهيكل الذى تهدم، وهو الآن فى مكان ما تحت مدينة القدس، من يحكم القدس الآن؟ تعجبت! من الناحية السياسية يحكمها الأتراك، والمسلمون بنوا مسجدا، كما يقول اليهود بنوه على بقايا قصر سليمان. من يدرس التاريخ ويركز على التاريخ سيقول بالطبع: إن القدس ليست لليهود، لأن القدس هذه ليست هى "أورشليم" التى كانت قبلا.

على كل حال تتعدد دور العبادة فى أنحاء فلسطين، وهناك الآن تنافس بين المسيحيين بطوائفهم المختلفة وبين اليهود، والجميع يركز على الآثار، ويحاول أن يكشف أحقيته فى المكان، وبينهم بلا شك صراع شديد، وقد قام كل منهم ببناء المدارس ودور الأيتام، وهم يديرون المستشفيات، وأسسوا جمعيات تبشيرية، وبشكل أساسى يحاول البريطانيون والأمريكيون والألمان السيطرة على القدس، ولا يريدون تركها لأحد، وهكذا اشتد الصراع بين اليهود والمسلمين وأحفاد الصليبيين، كل منهم يتصارع من أجل القدس، من هو صاحبها؟ ومن هو مالكها؟ أتعجب، فالآن أشاهد أمامى الموقف الدولى بشكل واضح! كل واحد هو عبد الله، وكل واحد يمكن أن يكون صاحب القدس، لكن الله عليم خبير، وهو يقبل المؤمن الأمين المتسامح الذى يحب لأخيه كما يحب لنفسه، المؤمن العادل، الله يقبل من يحمل هذه الصفات ليكون مالكا للقدس.

قفطان النصارى (زى النصارى)

فى الصباح قدمت إلى كنيسة يرتفع عليها العلم البريطانى، وضعوا فى المدخل الرئيسى صليبا ذهبيا، ووضعوا شمعة ضخمة، وكان المطران يرتدى "قفطانا" أحمر ويوم الصلاة، شعرت بجو من الهيبة والعظمة داخل الكنيسة، لكنى لم أكن سعيدا، فى طريق عودتى رأيت مشهدا عجيبا، كان هناك عدد من اليهود الطاعنين فى السن يقفون معا ويتبادلون الحديث فى موضوع ما، وشاهدت نحو خمسة صبية أو ستة فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرهم يضعون الطرابيش على رءوسهم، ويعمدون إلى مضايقة اليهود، ثم بدأوا يلقون عليهم الحجارة. تعجبت كثيرا! بينما بدا اليهود كأنهم تعودوا على مثل هذه المضايقات، فكانوا ينظرون فقط إلى الأولاد دون أى رد فعل من جانبهم، إن أسرة روتشيلد Rothschild[٢٣] هم من نفس جنس هؤلاء العواجيز، لقد قام آل روتشيلد ببناء مدرسة لأبناء هؤلاء العواجيز وأحفادهم، لكن أظن أن هؤلاء يحتاجون إلى شىء آخر مُهِم غير الأقارب الأغنياء.

بيت لحم

ذهب ماكثيه وعبد الله صباح اليوم إلى الناصرة، أما أنا فسوف أشاهد بيت لحم مع روبرت الشاب الذى استقبلنى وصحبنى يوم وصولى إلى الفندق، سوف أمضى عبر وادى "هنوم" الذى يمر إلى الجنوب والغرب من مدينة القدس. مشيت مع روبرت مسافة ميلين تقريبا، على اليمين وعلى الشمال حدائق من عنب، وهناك أديرة ومستشفيات، كما شاهدت فى الطريق قبر راحيل[٢٤] تفرع الطريق إلى طريقين، أحدهما يؤدى إلى الخليل والآخر يؤدى إلى بيت لحم، هذه المرة لن أذهب إلى الخليل، سأذهب مباشرة إلى بيت لحم. فى الجانب الشمالى من الهضبة شاهدت بيوتا مبنية من الطين والحجارة، تعلوها الأتربة، ويبلغ عدد السكان هنا عشرة آلاف نسمة، ويعملون أساسا بالزراعة، كما يشتغلون ببعض

---

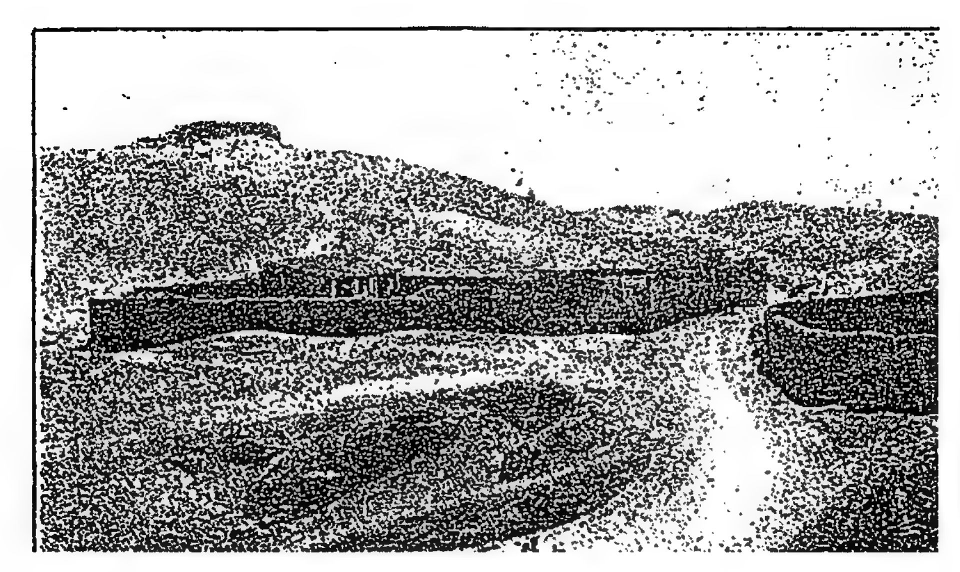
(٢٣) أسرة يهودية أوروبية ثرية، لها أيضا ثروة كبيرة فى أمريكا، لعبت دورا مهما فى إحكام سيطرة اليهود على فلسطين، وكانت الركن الأساسى لصدور وعد بلفور. (المترجم)

(٢٤) الزوجة الثانية ليعقوب، وهى أم يوسف وبنيامين، دفنها يعقوب فى بيت لحم، وأكثر زوار قبرها من اليهود. (المترجم)

الصناعات اليديوية من الخشب أو المحار، ويوجد دير سانت ماريا فى ناحية من البلدة، وهو ملك لثلاث طوائف: الروم واليونان والأرمن، ويدور بينها صراع وقتال شديد أحيانا، كل منهم يدعى ملكيته للدير، ولهذا قدم العسكر الأتراك لحراسة الكنيسة.



قبر راحيل



الطريق إلى يافا

يقولون: هنا كان مولد المسيح (عليه السلام)، سأذهب لأرى مسقط رأس المسيح، تفرجت مع روبرت على عدة أماكن، وصلت إلى مكان يشبه الكهف، أمامه صورة لفارس يقتل طفلا، طبقا لمعلومات مرافقى ومرشدى الشاب روبرت فإنهم قد وجدوا بقايا عظام كثيرة فى هذا الكهف[٢٥]، إذا كان هذا الأمر صحيحا فسوف أصلى من أجل هؤلاء الأطفال الصغار، بدلا من أن أصلى لله من أجل يهوا! كان روبرت يشير إلى أماكن متفرقة فى البلدة هنا وهناك، هضاب بألوان بنية داكنة، ووديان تغطيها الخضرة الزاهية، وحقول القمح المترامية المتموجة... قال روبرت هذه حقول "بوعز"[٢٦] حيث كان الراعى يرعى ليلة ميلاد السيد المسيح عليه السلام. أغمضت عينى... جاءنى من بعيد صوت الناى الذى كان ينفخ فيه أحد الرعاة فيصدر أجمل الألحان والنغمات، هنا كثير من الذكريات، هنا فى بيت لحم تذكرت أشعار الأزمنة القديمة!

حديقة الجثمانية (Gethsemane)

رجعت من بيت لحم، وفى المساء ذهبت إلى منطقة جبل الزيتون لزيارة حديقة الجثمانية[٢٧] زرت حديقة الجثمانية، ولم أر قبر ماريا... آه، حطمت الحقيقة أحيانا أحلامى الجميلة، إذ لم أر قبر ماريا المجدلية، وبعد ذلك وصلت إلى مكان محاط بجدار حجرى، قالوا إن هذه المنطقة هى "الجثمانية"، وهذا هو المكان الذى يقابل فيه يهودا المسيح، وأشاروا على صخرة، وقالوا هناك تحت هذه الصخرة ثلاثة من تلامذة المسيح مدفونون تحتها، يبلغ نصف قطر الحديقة نحو سبعين

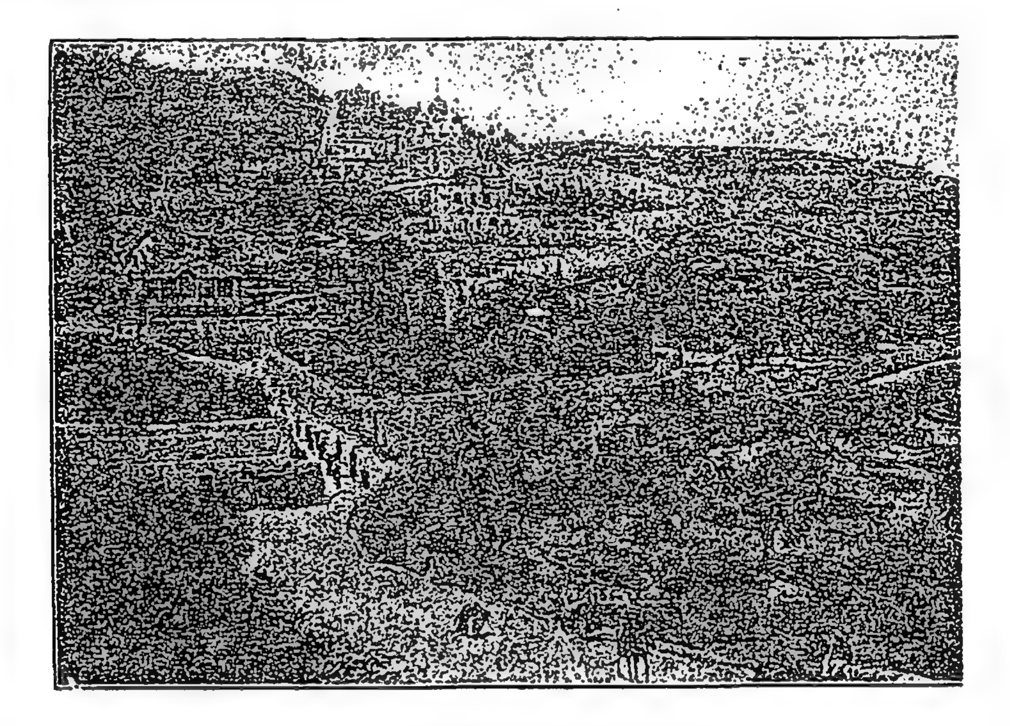
---

(٢٥) يوجد كهف يمين كنيسة العذراء يسمى غار العذاب، وقد سيطر عليه الرومان الفرنسيسكان منذ السفلية سنة ١٣٩٢م، كما سيطروا على حديقة الجثمانية التى سيرد ذكرها فيما بعد سنة ١٦٨١م. (المترجم).

(٢٦) بوعز هو ابن شلمون وراحاب، وطبقا للتلمود كان بوعز تقيا ورعا وحكيما معلما. (المترجم)

(٢٧) الجثمانية أو جتسمانى Gethsemane حديقة تقع أسفل جبل الزيتون فى القدس، وتعرف بأنها مكان صلى فيه المسيح (عليه السلام) مع تلاميذه، وتناول فيه العشاء الأخير قبل القبض عليه. والموقع الأصلى لا يزال غير معروف، وطبقا لما ورد فى الكتاب المقدس هو المكان الذى اعتاد المسيح أن يأوى إليه مع تلامذته، والذى سمح ليهودا أن يجده فيه ليلاً ويقبض عليه. (المترجم)

خطوة، وشاهدت ثمانى أشجار قديمة جدا محاطة بسياج حديدى، قيل إن أقدمها يرجع إلى قبل أربعمائة سنة أو خمسمائة، ومع هذا فهى مورقة بأوراق خضراء يانعة، وهناك فجوات وفتحات فى جذوع الأشجار تبدو مثل الكهف، ولاحظت أنهم زرعوا أيضا الموالح مثل البرتقال والليمون، وهناك شجيرات أزهار متفتحة، وحين يأتى الزائرون هنا يطلبون منهم تبرعات لحماية هذه الأشجار، والحديقة ملك للاتين(٢٨).



حديقة الجثمانية

(٢٨) كان اللاتين قد بنوا حائطا حول قطعة الأرض هذه، وحافظوا عليها حديقة عامة، أما الإغريق فاعتقدوا أن الحديقة الفعلية تقع فى الجنوب الشرقى قليلا من هذه الحديقة. (المترجم)

بعد أن خرجت من الحديقة طالعتنى مباشرة كنيسة الروس الأرثوذكس بقبابها المتميزة، سبعة قباب متنوعة الحجم ما بين الكبير والصغير، وكانت تلمع وتسطع بأشعة ذهبية، لكنى لم أدخل الكنيسة[٢٩]. أظن أن القدس مكان يجعلنى أغلق عينى، لقد أُصبت بالإحباط، لم أجد حقا ما كنت أحلم به، ولم أر حقا ما كنت أطمع فى رؤيته... من الأفضل أن أغلق عينى وأتخيل صور الماضى!

جبل الزيتون

حديقة الجثمانية! جتسيمانى! غادرتها ولم أشأ دخول كنيسة الروس الأرثوذكس، ومضيت، تسلقت منحدرا مملوءا بالأحجار مدة عشرين دقيقة حتى وصلت إلى قمة جبل الزيتون، الطائفة اللاتينية شيدت كنيسة، وفى منافسة لهذه الطائفة قامت الطائفة اليونانية ببناء برج عال يتكون من ستة طوابق، صعدت سلم هذا البرج وأحصيت درجات السلم فوجدتها ٢١٤ درجة، وصلت قمة البرج، وتلفت حوالىَّ... من هنا حيث أقف على ارتفاع نحو مئتى قدم عن مستوى القدس، من هذا البرج يمكن أن تشاهد كل شىء من حولك، ويمكنك على وجه الخصوص مشاهدة المنطقة القريبة من القدس بكل تفاصيلها، كما يمكن التعرف على تفاصيل مدينة القدس: جبل الزيتون، ومن ورائه قبة الصخرة، ثم تشاهد جبل صهيون، وتشاهد أشكال الكنائس بقبابها والمساجد بمآذنها، وتشاهد صلبان الكنائس وأهلة المآذن، وتشاهد الأسقف المسطحة والأسقف المدورة، وتشاهد كل الألوان: الأبيض والبنى والقاتم واللامع، كما تشاهد أحيانا خضرة الأشجار، وتضاريس متنوعة ما بين مرتفعات وهضاب وسهول ووديان، تختلط كلها بعضها ببعض لتشكل صورة طبيعة أتقنها الخالق... مدينة القدس بين جبل الزيتون ووادى هنوم Hinnom، الطريق الواسع الأبيض يمضى ملتويا ويتعرج بين الحين والحين ليصل إلى بوابة المدينة، وهناك أشجار كثيفة، أشجار زيتون وأشجار عنب موجودة بكثرة، والناس والحمير يتحركون معا هنا وهناك، والقدس تبدو مغطاة بتموجات من الجبال والهضاب، إذا كان علىَّ أن أشاهد حقا القدس فلا بد أن أختار جبل الزيتون هذا.

---

(٢٩) هناك كنيسة الروس الأرثوذكس بقبابها الذهبية بصلية الشكل على النمط البيزنطى الروسى، والتى بناها قيصر روسيا ألكسندر الثانى تخليدا لذكرى أمه. (المترجم)

يقال إنه فى عهد المسيح كان جبل الزيتون منخفضا، وكانت أسوار المدينة أضخم كثيرا مما هى عليه الآن، ويقال إن الهيكل كان مبنيا فى هذه المنطقة، إلا أنه وسط هذا الجو المهيب يمكننا من ناحية أخرى أن نشاهد دماء القدس، يمكننا أن نشاهد القدس المحطمة. ماذا يقول المسيح؟ وبم يشعر إذا ما شاهد هذه الحالة؟!

فى الناحية الشرقية أمكننى أن أشاهد وادى الأردن وبيت عانيا وبيت باغيه وفى الجنوب وفى الشمال أشاهد جبالا وهضابا بنية الشكل تخالها أمواجا فى وقت ما بعد الظهر.

نزلت من قمة البرج ومضيت إلى هضبة، كان وقت الغروب يداهمنى، وهبوب الرياح توقف دون أن أنتبه، بينما تلونت منطقة البحر الميت بلون الشفق الأحمر، وصارت القدس جزءا من صورة مرسومة بيد الخالق. من جبل الزيتون إلى هذه الهضبة التى أقف عليها شاهدت حقول القمح الذى تحولت سيقانه إلى اللون الأصفر بينما هناك بعضها ما زال يحتفظ بلونه الأخضر، ومن خلفى كانت أصوات قطعان الخراف والماعز تمضى يسوقها الرعاة، وهم يمسكون بعصا طويلة يوجهون بها قطعانهم. تابعت هؤلاء الرعاة حتى ابتعدوا عنى وصاروا كالأشباح، بينما تسمرت فى مكانى أشاهد منظر غروب شمس جبل الزيتون!

الجلجثة الأصلية

عانيت كثيرا من مغص شديد فى المعدة يوم التاسع والعشرين، أصابنى إسهال منعنى من الحركة وجعلنى أرقد فى الفراش طول اليوم، وفى اليوم التالى اضطررت أيضا إلى البقاء فى الفراش، وفى يوم ٣١مايو حاولت أن أنهض من فراشى لأزور الأماكن الموجودة خارج أسوار القدس.

شاهدت أكوام التراب بالقرب من المكان الذى يلقى الناس فيه بالقمامة، يذكر كثير من الباحثين أنها بقايا الجلجثة[٣٠]، بينما يذكر باحثون آخرون أن المكان

---

(٣٠) اسم يشير إلى مكان خارج القدس القديمة، يعتقد المسيحيون أن يسوع المسيح صلب عنده، وكان قسطنطين الأول الإمبراطور الرومانى قد بنى كنيسة القيامة فى المكان الذى يعتقد أن المسيح صلب فيه، وقيل إن قبر المسيح والصليب الحقيقى قد اكتشفا فى ذلك الموقع من قبل الإمبراطورة هيلانة أم قسطنطين سنة ٣٢٥م، وقد ذكرت الجلجثة فى إنجيل متى٢٧٣٣ومرقس١٥٢٢ولوقا ٢٣٣٣ ويوحنا ١٩١٧. (المترجم)

يضم قبر الجنرال جوردن. والآن أقاموا حائطا حول هذه المنطقة، وقد شاهدت قبور كثير من المسلمين، وفى المنطقة مقابر داخل كهوف ومغارات، كما توجد مقابر لكبار القادة العسكريين، أو قبور بعض الملوك العظام! قبور لا حصر لها، ومن بينها مقبرة يطلق عليها مقبرة الجلجثة[٣١] يعتقدون أنها مقبرة السيد المسيح، إلا أننى لم أشاهد هذا القبر حقيقة لكنى شاهدت أمام المقبرة المزعومة جثة قطة ماتت حديثا!

وادى الموت

نزلت ناحية جنوب وادى كيدرون (وادى حلوة)، فى الجانب الغربى من الوادى أشاهد مقابر المسلمين بألوانها البيضاء، وأشاهد مقابر اليهود المتنوعة: منها سالكبير ومنها الصغير ومنها القديم ومنها الحديث، مقابر لا حصر لها، شاهدت المكان الذى يقال إنه قبر زكريا كما شاهدت قبورا أخرى.

كان المكان مملوءا بالحجارة مثلما كانت عقول الناس وقلوبهم، كانوا دائما يحملون الحجارة لإيذاء الآخرين... وقتلوا من يقول الحق، ثم وضعوا له قبرا غطوه بهذا الحجر الكبير، من الجدير بالذكر أن معظم القبور التى بنيت هنا حديثا هى قبور حديثة ليهود من خارج فلسطين، كانوا قد أوصوا بأن يدفنوا فى القدس[٣٢] ، على كل حال هذا مكان يجلب الأسى والحزن.

كان الناس يطلقون على وادى حلوة (كيدرون) وادى النار، لأنهم كانوا يضحون هنا بالأطفال الصغار من أجل صنم الإله "مُلك"[٣٣] ، وهم يقولون إن يوم الحشر سيكون من هذا الوادى[٣٤].

---

(٣١) ربما يطلق عليها أيضا مقبرة البستان! (المترجم)

(٣٢) ورد فى سفر زكريا من الكتاب المقدس أن من هذا المكان، جبل الزيتون، سوف يبدأ الله بإقامة الموتى فى نهاية الأيام، وبالنسبة للمسيحين يقال إن المسيح (عليه السلام) صعد إلى السماء من هذا الجبل. (المترجم)

(٣٣) الإله Moloch,Molekh هو إله النار، وارتبطت التضحية بالنار، وكان معروفا فى الشرق الأوسط فى الأزمنة الغابرة. (المترجم)

(٣٤) يعتقد اليهود أن الخروج من الأجداث (القبور) يوم القيامة سيتم من وادى كيدرون (وادى حلوة) فى القدس. (المترجم)

مضيت أمشى فى وادى حلوة، فصادفت هضبة مدببة وشاهدت قرية "شيرو" التى أعيد بناء معظم بيوتها على أنقاض بيوت يعتقد أنها بيوت يهودية قديمة، ومن بعيد لا يمكن التمييز بين البيوت والصخور، ولكن يمكن مشاهدة فتحات سوداء، هى نوافذ تلك البيوت، والقرية بأكملها قرية عربية، كانوا كلما رأوا وجهى سألونى بقشيشا، كان بعض البنات ممن لا تتجاوز أعمارهن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة يتعمدن قذفى بالحجارة! وكان هذا الجزء من الوادى منخفضا، لكن إذا نظرت من فوق أمكنك مشاهدة قبة الصخرة، هذا حقا وادى الموت، وادى الجحيم، وادى الحطام، يجعلنى هذا الوادى أشعر بالاشمئزاز والقرف... أسفل الوادى توجد جداول ماء ينساب فيها ماء قليل، يستخدمه الناس لزراعة بعض الخضراوات، كما توجد بحيرة ماؤها ضحل ويبدو أنها مياه غير نظيفة، ربما مياه صرف قذرة، ملقى بها جثث الكلاب والقطط، وبالقرب من هنا مستشفى لعلاج الجدرى... هذا الوادى هو حقا ذلك الوادى الذى وصفه دانتى فى كتابه الكوميديا الإلهية!!

بالقرب من بوابة صهيون هناك قبر داود، وهو ملحق بالحجرة التى يقولون إنه قضى بها آخر أيامه[٣٥]، شاهدت بعض اليهود يقفون أمام هذا القبر بينما كان بعضهم يجلس، كانوا يقرأون التراتيل بصوت أشبه بطنين البعوض!

لقطات متفرقة من مدينة القدس

فى أول يونية شعرت بالإرهاق والتعب بسبب سياحتى بالأمس، لهذا فضلت البقاء فى الفراش طول اليوم، أنا الآن أعلى من مستوى سطح البحر بألفين وخمسمائة قدم، كنت أرتدى طول النهار ملابس خفيفة، لكنى فى الليل احتجت لملابس قطنية ثقيلة. القدس فى الشتاء تغطى بالثلوج والجليد، فإذا حدث نقص هنا فى شىء ما فيكون فى المياه، وهناك أنابيب مياه جديدة تمتد من بيت لحم، كما أن هناك عدة آبار بالقدس القديمة حيث توجد أيضا بحيرة صغيرة لكن مياهها ليست نقية، بل هى مملوءة بالجراثيم والميكروبات، ولهذا يقوم كل بيت بجمع مياه المطر وحفظه من أجل استخدامه للشرب، وفصل المطر هنا يكون من نهاية شهر نوفمبر حتى بداية شهر أبريل.

* *

(٣٥) يرى بعض الباحثين أن قبر داود الذى على جبل صهيون فى القدس هو من صنع القرون الوسطى، أما برجه الشهير فهو عبارة عن صومعة بنتها الجيوش العثمانية للسلطان سليمان القانونى. (المترجم)

شاهدت أسرابا لا حصر لها من الذباب، بينما تمضى الحمير تنهق بصوت منكر مثل صوت آلة ندف القطن وتنظيفه، وكانت الحمير تحمل الخراف المذبوحة التى فُصلت رءوسها عن أجسامها، زد على ذلك كثرة الحجارة فى الطريق، مما يجعله وعراً لا يصلح للمشى، فالهضبة أيضا مملوءة بالحجارة، والأشجار فيها قليلة، ومعظم البيوت مبنية بالحجارة ومطلية بالجير، والسطوح مفلطحة أو على شكل هلالى بارز عن مدخل البيت، ليست كأسطح البيوت فى اليابان، وهى أيضا من الحجارة، والشارع أيضا معبد بالحجارة، كما استخدموا الحجارة أيضا فى بناء الأسوار... أتعجب هل تحجرت قلوب الناس وعقولهم؟!

* *

حين تهب الريح تتطاير ذرات الصخور الجيرية فى الجو مسببة غبارا كريها، كنت أشاهد الجبال ذات اللون البنى والشوارع ذات اللون الأبيض، وأحيانا أشاهد صخوراً رمادية، إلا أن هذه الصخور الرمادية كانت صخورا متحركة غير ثابتة، إذ أدركت بعد قليل أنها قطيع من الماعز يتحرك.

* *

كان الجو نقيا جدا والسماء كانت صافية، ويمكننى أن أشاهد على مسافات بعيدة أبعد من جبال الزيتون وجبال البحر الميت، لو أن فلكيا أو شاعرا جاء هنا فى ليلة مقمرة، نجومها ساهرة، فسوف يشعر بالسرور والحبور، ولو جاء هنا رسام فلا شك أنه سيستمتع برسم لوحة رائعة لهذا المنظر البديع.

* *

عندما تشرق الشمس تشقشق العصافير،

وعند الغروب تنعق الغربان

* *

بداية شهر يونية، تتراقص سيقان القمح، تتمايل، تتحول الحقول إلى أمواج بحر، وبراعم أزهار المشمش والرمان تتفتح، تكشف عن داخلها للعيان، وعند كنيسة الأرمن فى القدس هناك آثار بيت "كايابا" وبجواره شاهدت شجرة صنوبر ضخمة جدا قيل إن عمرها خمسمائة سنة.

أعتقد أن الزائر للقدس إذا ما أراد أن يشاهدها بشكل جيد فعليه أن يفعل ذلك عند شروق الشمس.

حين تشرق الشمس على القدس فاستيقظ!

استــقـــيظ مع تــنـــفس الـصـــبـــاح!

الضريح المقدس

فى يوم الثانى من يونية ذهبت للفسحة مع روبرت، وحصلت على تصريح لزيارة الضريح المقدس، كان يرافقنا عسكرى تركى بهدف حراستنا، فى جنوب شرقى مدينة القدس القديمة عبرنا سوق القطن ثم صعدنا سلالم حجرية ثم دخلنا إلى المكان الذى دفن فيه المسيح واسمه الضريح المقدس، وصعدنا السلالم مرة أخرى ، ثم شاهدنا المبنى الرئيسى لمسجد عمر (رضي الله عنه) وهو الخليفة الثانى، وهو والد زوجة النبى محمد (ﷺ)، والمبنى الذى نراه بناه الخليفة عبد الملك فى القرن السابع الميلادى، وتم ترميمه بعد ذلك عدة مرات، وهذا مكان له مكانة كبيرة فى قلوب المسلمين بعد مكة المكرمة[٣٦]. شاهدت المبنى الثمانى الأضلاع مع قبة عليها هلال، المسجد من الداخل على شكل دائرة نصف قطرها ٥٤٠ خمسمئة وأربعون مترا، والأرضية من الخارج من الرخام المرمرى، والسقف مزخرف بقطع من الخزف الأبيض والأزرق والأخضر، وكل قطعة تمثل بذاتها قطعة فنية صنعت بطريقة خاصة تختلف عن الأخرى، والجدار الداخلى من الزجاج الملون، جعلوا الألوان مختلفة ومتباينة، مع قطع من الصدف والموزايكو، وعلى الجدران كتبت آيات من القرآن الكريم بحروف مذهبة، كما لو كانت هذه الكتابات شجرة "لولاب" متداخلة أغصانها مع الزخارف والنقوش الأخرى، أما

---

(٣٦) يشير هنا إلى المسجد الأقصى، ومسجد عمر (رضي الله عنه) يعود تاريخه إلى العصر المملوكى، وهو ليس المكان نفسه بالضبط الذى صلى فيه عمر بجوار كنيسة القيامة، أما المسجد الأقصى الذى يصفه المؤلف، والذى يقع فى البلدة القديمة لمدينة القدس المسورة، فهو اسم لكل ما دار حول السور الواقع فى أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة القديمة المسورة، ويعد كل من مسجد قبة الصخرة والجامع القبلى من أشهر معالم المسجد الأقصى، وعلى عكس ما ذكر المؤلف وما يعتقده البعض من أن من بناه هو الخليفة عبد الملك بن مروان، فإن عبد الملك بنى فقط مسجد قبة الصخرة، أما المسجد الأقصى فهو قديم: إذ هو أولى القبلتين وثانى مسجد وضع فى الأرض بنص الحديث النبوى. وفى سنة ٦٣٦م = ١٥هـ بنى عمر بن الخطاب المصلى القبلى من المسجد الأقصى، وفى عهد الدولة الأموية بُنيت قبة الصخرة، كما أعيد بناء المسجد القبلى ليكتمل البناء بشكله الحالى عام ٧١٥م. واليهود يقدسون هذا المكان نفسه ـ أى قبة الصخرة ـ ويطلقون عليه اسم جبل الهيكل،

الضوء فيأتى من خلال النوافذ المغطاة بشبكة معدنية، كانت الأضواء القادمة من خلال هذه النوافذ أضواء خافتة، إلا أنها رغم ذلك تجعل داخل المسجد أكثر ضوءا مما يظن المرء لأول وهلة، علاوة على أن الضوء إذا ما وقع على هذه الزخارف يجعل المشهد رائعا والمنظر داخل المسجد خلابا.

أرضية المسجد فى مركزه من الجرانيت، وهذا المركز يبلغ نحو ١٠٠ مئة متر، وهذا فى الأساس يعد من الأماكن التى تنال احتراما وقدسية كبيرة لدى المسلمين، وقد بنى مسجد الصخرة على تلك الصخرة التى يقولون إن إبراهيم (عليه السلام) وضع ابنه إسحاق عليها ليذبحه، ويقولون أيضا إن النبى محمداً(ﷺ) وضع جبهته على هذه الصخرة[٣٧] كما يقولون إن محمداً دق هنا ١٩تسعة عشر مسمارا بمعنى انتهاء ١٩تسعة عشر عصرا من عصور البشرية، على أن العصر التالى سيعنى انتهاء العالم، وكان الشيطان يحاول أن يسرع بدق المسمار الخامس عشر إلا أن جبريل أوقفه واحتفظ بثلاثة مسامير، ولا تزال هذه المسامير بلونها الأزرق موجودة فى المسجد! فى هذا المسجد أشياء غامضة كثيرة[٣٨].

إحدى جوانب الصخرة صارت مفلطحة، وقد جاء الصليبيون هنا، وشاهدت بالصخرة فجوة كبيرة، وحين خطوت بقدمى، صدر صوت كأنه قادم من داخل كهف، إلا أن روبرت قال: لا يمكن القول بأن هيكل سليمان تحت هذه الصخرة.

خرجنا من مسجد عمر ونزلنا عبر السلالم الحجرية إلى الناحية الجنوبية، هناك بركة صغيرة، ووصلنا إلى المسجد الأقصى، هذا المسجد كان قد بناه جستيان الرومانى ثم صار مسجدا للمسلمين. هنا نشعر بأقدام المسيح أيضا، وشاهدت عمودين داخل المسجد يقال إنه لو مر أحد من بينهما دخل الجنة! ولما كانت المسافة بينهما ضيقة جدا فإن من لم يتمكن من المرور من بينهما سيدخل جهنم!

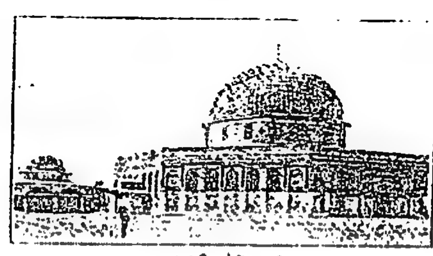
---

(٣٧) ما ذكره المؤلف هنا يحتاج إلى تحقيق، فالرسول (ﷺ) كما ثبت من كتب السيرة وغيرها ذهب من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، وهناك صلى بالأنبياء إماما، ثم عرج به إلى السماوات. انظر "رحمة للعالمين سيرة النبى الأمى" للقاضى محمد سليمان المنصور بورى، ترجمة سمير عبد الحميد، ص٦٤ وما بعدها، ط مكتبة دار السلام، الرياض١٩٩٥م. (المترجم)

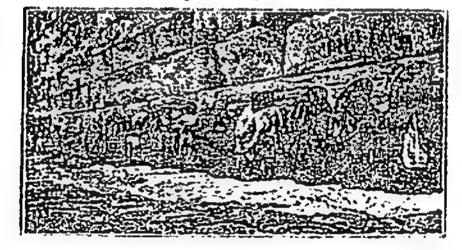
(٣٨) هذه من الخرافات التى شاعت بين الناس فى ذلك الوقت. (المترجم)

شاهدت على النافذة المثبت عليها أعمدة معدنية بقايا قطع من القماش، اعتاد الناس القادمون لزيارة المسجد على ربطها تبركا! خرجنا من المسجد ونزلنا إلى الطابق تحت الأرضى وشاهدنا مكانا يطلق عليه إسطبل سليمان، تبلغ مساحته نحو ٩٠ تسعين مترا فى ٦٣ ثلاثة وستين مترا، وربما كان هذا هو المكان الذى كانت تربط فيه الخيول والخراف والماعز أيام النبى سليمان(عليه السلام)، وشاهدنا بقايا فتحات كانت تستخدم لربط الحيوانات.

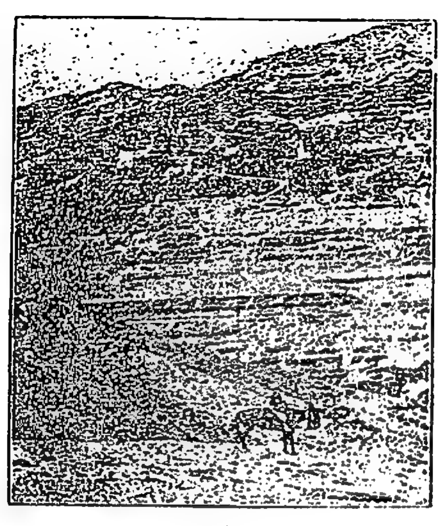
خرجنا من الإسطبل، ومضينا ناحية الشمال وشاهدنا أسفل وادى حلوة (كيدرون)، وجبل الزيتون، وشاهدت حائطا من الحجارة وفى أسفله صخرة قديمة، وطبقا لمقولات المسلمين حين يحين يوم القيامة ستتحول هذه الصخرة إلى بكرة من الأسلاك تمتد من هنا إلى وادى الزيتون بينما يجلس المسيح (عليه السلام) والنبى محمد(ﷺ) عند وادى الزيتون، وسيقومان بمحاكمة الناس ومقاضاتهم، وسوف يمضى الطيبون على السلك بمساعدة جبريل، أما الأشرار فسوف يسقطون من هذا المرتفع إلى جهنم. ويطلق على البوابة الشرقية لهذا المكان المقدس البوابة الذهبية، وقد بنيت فى العصور الوسطى، ومن هنا مر المسيح ذات مرة على حماره الصغير، ومن هنا دخل القدس، هكذا يقولون، ولا أحد يعرف متى أغلقت هذه البوابة.



مسجد عمر



حائط البراق (المبكى)



جبل الزيتون

بركة بيت حسدا(٣٩)

تقع ثكنات العساكر شمال غرب قبة الضريح المقدس، وأسوار بلدة القدس يفصلها عن هذا المبنى طريق ضيق يطلق عليه طريق الصليب، وهذا الطريق يصل إلى "عين كارم" (٤٠) . بعد أن مشينا قليلا وصلنا إلى بوابة على شكل قنطرة مقوسة، هى بوابة يوحنا المعمدان(٤١) ، وقد سميت باسمه. بعد أن عبرنا البوابة دخلنا دير راهبات صهيون، وقد شاهدنا طريقا معبدا بأحجارترجع إلى العصر الرومانى وكانت على الأحجار رسومات وأشكال يقول الناس بأنها رموز تستخدم فى لعب القمار. دق قلبى حين سمعت هذا، ربما كان الجنود يلجأون لهذا للتخلص مما يصيبهم من إحباط، كانوا يلجأون إلى اللهو والمقامرة، وكانوا يلهون بطرق متنوعة، وشاهدت على الطريق أيضا آثار "حدوة" خيول مضت على هذا الطريق، لكن كل هذه الأشياء صارت تاريخا ماضيا، وبدا لى أن القدس القديمة قد دفنت فى مكان سحيق، لكن الناس وسنة بعد سنة يريدون أن يكتشفوا شيئا من الماضى، أن يكتشفوا ولو قطعا صغيرة جدا من الماضى، أعتقد أن القدس

---

(٣٩) انظر إنجيل يوحنا. (المترجم)

(٤٠) ورد فى الأصل كاريوبارى، وبعد بحث وجدنا أن المقصود قرية عين كارم فى ضواحى القدس التى لم يعد لها وجود؛ إذ احتلها اليهود فى هدنة حرب عام١٩٤٨م، وقسموها وبنوا فيها مستوطنات، ويقال إن عين كارم هى مسقط رأس يوحنا المعمدان الذى شيدت كنيسة باسمه فوق الكهف الذى ولد فيه، ويقال إن المسيح (عليه السلام) والسيدة مريم زارا عين كارم عدة مرات، وذكر الرحالة جيمس بكنجهام أن ثمة مسجدا بالقرية وأن شجر الزيتون يكثر فى الأودية المجاورة، وأشار الرحالة من بعده إلى وجود كنيسة مار يوحنا الفرنسيسكانية ضمن دير فى الجهة الشرقية، وأيضا دير "راهبات صهيون" الذى أشار إليه المؤلف فيما بعد، وكنيسة حديثة البناء، وهناك ملجأ روسى كان فى طور البناء سنة ١٨٨٢م فى أقصى غرب القرية، وقد أشار إليه المؤلف أيضا، وقد أنشأ الفرنسيسكان مدرسة للبنين، وذكر أيضًا أن راهبات صهيون يشرفن على مدرسة دار أيتام للبنات، كما أن أبوابها ونوافذها على شكل قناطر مميزة، وهو ما أشار إليه المؤلف، ويوجد بها نبع يسمى عين مريم، ويوجد فى القرية أيضا دير مار زكريا والقبور التابعة لكنيسة راهبات صهيون ومسجد بمئذنة يطلق عليه المسجد العمرى تيمنا بعمر (رضي الله عنه). (المترجم)

(٤١) هو الذى عمد المسيح قبل أن يُقبل بأمر الملك هيرودس، وقد ولد طبقا للتقليد المسيحى فى عين كارم، وهو يحيى بن زكريا الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم، فى سور آل عمران ومريم والأنبياء. (المترجم).

المدفونة تعنى المسيح المدفون، لكنى حقا سعيد أن أعلم أن دير الراهبات هذا يرعى مائة يتيم ينتمون لجنسيات مختلفة وأديان مختلفة دون تمييز بسبب دين أو عقيدة. إن من اكتشف دير الراهبات هذا يهودى اعتنق المسيحية، كانت مرشدتنا راهبة فى منتصف العمر، أشارت إلى شخصين فى صورة معلقة على الحائط قائلة إنهما يهوديان تحولا إلى المسيحية، وبعد ذلك حاولت أن أصل إلى بركة بيت حسدا[٤٢] فنزلنا درجات سلم حجرى، ووجدت بركة محفورة فى الصخر كأنها فوهة فى قاع كهف، هذه بركة حسدا[٤٣] يوجد أمامها شرح عن بركة الماء هذه، وقد كُتب الشرح بعدد من اللغات يصل إلى ٥٧ لغة مع جزء من الإصحاح الخامس فى إنجيل يوحنا[٤٤].

دون أدنى توقع شاهدت لغتنا اليابانية مكتوبة بالكانجى، شعرت بالسعادة تغمرنى وزادت سعادتى حين قرأت هذه العبارة التى سيقرأها أيضا كثير من الناس بلغاتهم:

"لا تتعجبوا من هذا لأنه ستأتى ساعة يسمع فيها جميع الذين فى القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة. أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئا، كما أسمع أدين، ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتى بل مشيئة الرب الذى أرسلنى".

الليلة الأخيرة، الوداع

فى اليوم الثالث من شهر يونية تمر علىَّ عطلة الأسبوع الثانى هنا فى القدس، غدا أغادر هذا المكان متوجها إلى بحيرة طبرية فى الناصرة، سأقضى طول اليوم فى حزم أمتعتى وترتيبها.

---

(٤٢) بيت حسدا اسم آرامى معناه بيت الرحمة، لم يذكر إلا فى إنجيل يوحنا. وكما تشير بعض المصادر لا يساعد الاسم فى تحديد الموقع، فلا يوجد هذا الاسم فى القدس، ووقائع القصة حدثت خارج اسوار المدينة. (المترجم)

(٤٣) تشير بعض المصادر إلى أنها بركة محفورة فى الصخر تمتلئ بماء المطر، يهبط إليها بسلم، وهى ملتوية شديدة الانحدار. ويرى العلماء أن البركة كانت عند عين مريم العذراء، مما يؤكد الاستنتاج الوارد هنا. (المترجم)

(٤٤) انظر شفاء مريض بيت حسدا ص ٨٤ من العهد الجديد الكتاب المقدس بالعربية، ط الرابعة٢٠٠٩ ، الإصدار الرابع، دار الكتاب المقدس بمصر، طبع كوريا. (المترجم)

كنا فى وقت الغروب، تتوارى الشمس فيظهر على صفحة السماء قمر أبيض، كما لو كنت أعيش حلما هنا فى القدس، لم يكن ضوء القمر ساطعا بل كان خافتا. لقد وصلت هنا بعد أن قطعت مسافة أربعة آلاف ميل من ناحية الشرق، وغداً سأرحل عن هذا المكان، كنت أتوقع إلى حد ما أننى أصبت بخيبة أمل فيما يتعلق بزيارتى للقدس، لكنى الآن وأنا أستعد للرحيل عن المدينة ينتابنى شعور شديد بالحزن، وعلى ضوء الأنوار الخافتة كتبت فى سجل زيارات الفندق ما يلى:

" كنت أبحث عن شخص مات، ليس فى هذا العالم، لكنه سوف ينهض، هكذا قال الرب، جئت أبحث بعد مرور ألف وتسعمائة سنة، ويسوع المسيح لا يوجد الآن، توجد الآن فقط آثاره، وكل ما بقى بعد ذلك هو السماء الزرقاء، والهضاب البيضاء، والناس الذين يتقاتلون لمن يكون حكم القدس؟ ولمن تكون؟ يا لها من أمور سيئة! قلبى بات مملوءا بالحزن ومفعما بالأسى... أستيقظ وأنهض! أنشر النور، وأكشف بالنور عن عظمة الرب من أجل قدس جديدة".

قلبى يجيبنى ويرد علىّ:

- أتمنى أن ينهض ثانية، ويأتى إلى القدس.

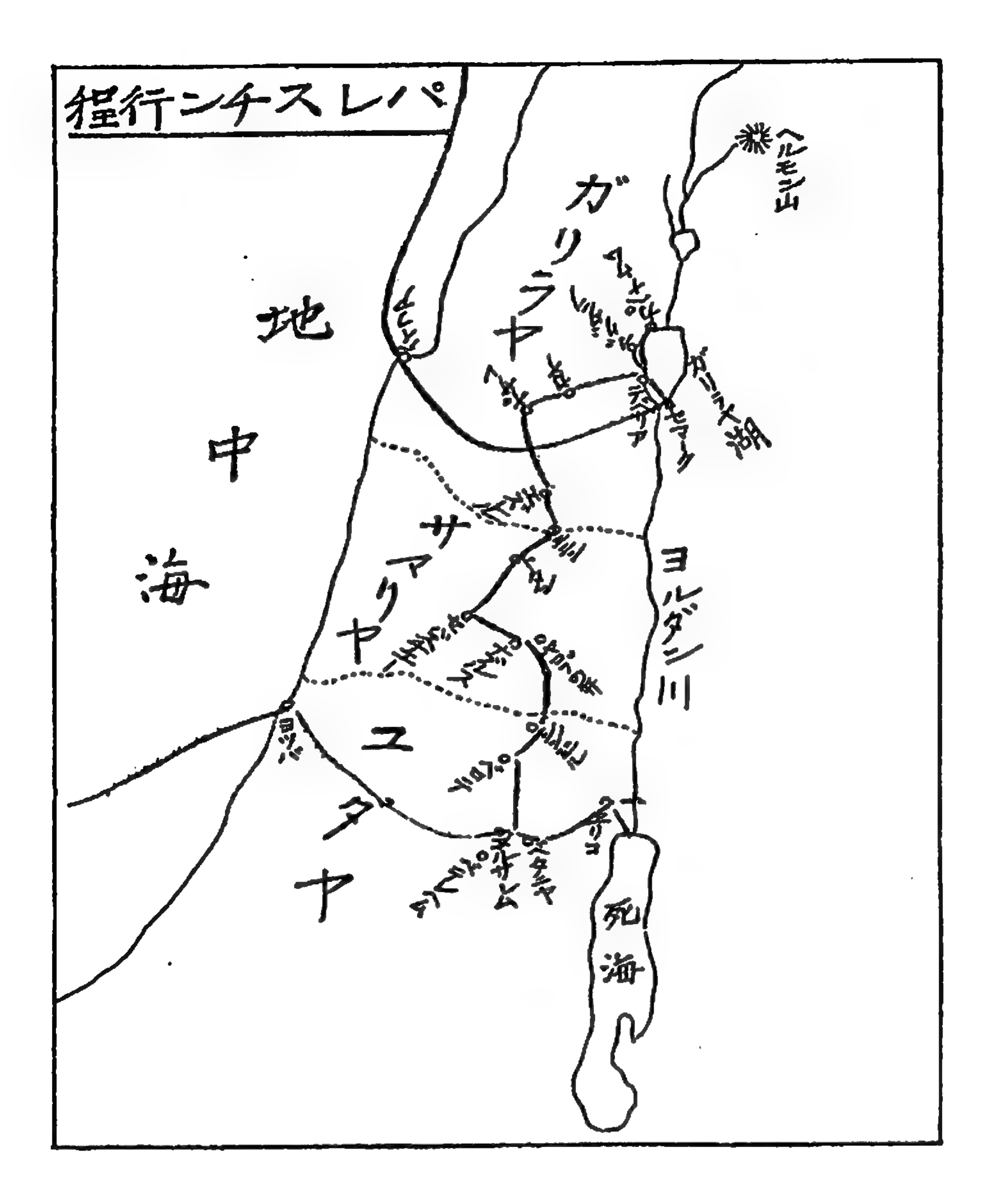
قلبى يتمنى هذا كثيرا ... طأطأت رأسى، أحلم، أنظر! المسيح قادم... هذه هى القدس، هذه هى المركز، إن راية الصليب ترفرف على البرج المرتفع الواصل إلى السماء، ومن بلاد كثيرة، ومن مناطق متفرقة أنماط كثيرة من البشر يتجمعون، لا توجد حدود لجنسية ولا حدود لجنس من الناس، فالجميع صاروا أسرة واحدة فى هذا العالم، أسرة كبيرة فى عالم واحد، عالم من الحياة، عظمته هو الأب ، يسوع المسيح".

... ثم غمرتنى السعادة، لكنى أدركت أننى كنت أحلم. آه، كنت أحلم، كان مجرد حلم ليس إلا! فماذا عساى أن أفعل إذا ما تحقق هذا أو لم يتحقق؟! إذ لا يمكننى أن أقوم بهذا وحدى، فيا إخوانى وأخواتى الأعزاء! هيا نصلى معا من أجل أن يعود المسيح إلينا.

الوهم الأخير

فى الساعة السادسة من صباح يوم الرابع من شهر يونية غادرت الفندق، مازالت القدس فى خيالى، ما زالت هى حلمى، بدأت أمضى نحو الشمال، مررت بجبل، وأخذنا الطريق المؤدى إلى دمشق متجهين ناحية الشمال، أخذت عربة حنطور يجرها الخيل وصلنا إلى قرية بيريته التى يسمونها الآن "إليه بليخ"، وجدنا كشكا يقدم الشاى فاسترحنا قليلا، هذه المنطقة تعد من ضواحى القدس، فهى تبعد عنها ثلاثة أميال، وهذا هو المكان الذى يغادر منه من زاروا المدينة لآخر مرة، فهذا هو مكان الوداع، ومن هذا المكان يمكن لمن يزور المدينة لأول مرة أن يلقى عليها من هنا أول نظرة. فى الأيام الغابرة كان من يأتون من الجليل إلى القدس ويمرون من هنا، كانوا يغنون وينشدون بعض الأغانى الخاصة.

حين تطلعت ورائى شاهدت تموجات الجبال والهضاب، شاهدت جبل الزيتون وشاهدت الكنيسة الروسية، ومن خلال الهضاب تمكنت من أن أشاهد القدس جميلة جدا، كأنها صورة رسمها أعظم فنان، بدت كأنها وهم، كأنها خيال. آه، يا أورشليم! وداعا أيتها القدس!



خريطة السفر داخل فلسطين (بقلم المؤلف)

ثلاثة أيام على ظهر الفرس

من القدس إلى الناصرة

فى الرابع من يونية غادرت القدس إلى الناصرة عبر السامرة، هذا يعنى أننى حين أتحرك لأصل إلى الناصرة كأننى كنت أقرأ الأناجيل الأربعة من آخرها إلى أولها.

ودعت القدس الوداع الأخير عند "عين كارم"، كان الجواد يمضى متجها باستمرار ناحية الشمال، كان يرافقنى مرشد يدعى فيليب جورج، يبلغ من العمر الثامنة والثلاثين أو التاسعة والثلاثين، وهو شامى مسيحى، كان الطريق الذى يمضى عليه الجواد قد تم تعبيده منذ ثمان سنوات حين قدم الإمبراطور الألمانى هنا، ومنذ ذلك التاريخ والأنشطة الألمانية فى فلسطين فى تزايد مستمر، فهناك فنادق كثيرة هنا يديرها الألمان.

كنا نمر على مكان فيه بقايا أطلال قديمة، ويقال هنا نصب إبراهيم خيمته ذات يوم. كان الطريق مثل الأخدود؛ فهو يمضى بين جبلين عن اليمين وعن الشمال. شاهدت آثارا قديمة وأطلالا يرجع تاريخها إلى عهد السيد المسيح... جبال وصخور، لا خضرة ولا أشجار ولا حقول، ونادرا جدا ما شاهدت مساحات مزروعة بالعنب، حين توقفنا عند استراحة صغيرة وجدتهم يبيعون التوت الأبيض والأحمر، سمعت أنه بالقرب من دمشق توجد حدائق أشجار التوت لإنتاج الحرير من دودة القز. مررنا بواد منخفض عميق، وينابيع ماء عذبة، وفى ظل بعض

الصخور توقفنا للراحة، قادوا الجياد إلى ينبوع ماء حتى تروى ظمأها، فى تلك الأثناء شاهدت رجلا يمتطى حمارا ويقود خلفه خمسة عشر بعيرا تحمل الأمتعة، دققت قليلا فوجدتها فاكهة متنوعة كالمشمش وغيره، وحين وصلنا بالقرب من حدود السامرة، شاهدنا رجلا يرقد تحت شجرة زيتون، فحاول فيليب أن يتحدث معه، لكن الرجل كان مستغرقا فى نوم عميق ولم يستيقظ، وهذا الرجل كان من واجبه أن يرافقنا من عند هذه النقطة حتى الناصرة، وهو أحد الخيّالة ويدعى إبراهيم، وهو من الشام أيضا. مضينا على الطريق إلى أعلى قمة المنحدر، ومنها يمكن أن يشاهد المرء جبل "هيرمون"[1] ولكننا اليوم وبسبب الضباب الكثيف لم نتمكن من مشاهدة الجبل، وكنا قد ابتعدنا عن القدس مسافة ثمانية أميال.

ما زلنا على ظهر العربة، والجواد يمضى عبر منحدر الطريق، حيث شاهدنا بقايا فندق بجوار بئر التف حوله جمع غفير، شاهدت زوجين يهوديين قادمين من الناصرة فى طريقهم إلى القدس، وشاهدت حداة الإبل ورعاة الغنم، كان عدد كبير من الناس قد ألقوا برحالهم فى هذا المكان طلبا للراحة. وقد أخذت أنا بدورى قسطا من الراحة تحت ظلال أشجار الزيتون، وبعد ذلك أخذت جوادا أبيض بينما أخذ فيلب جوادا بنيا واختار إبراهيم جوادا أسود، طلبت منهم أن يعطونى جوادا لطيفا هادئا، فكان لى ما أردت، وبالفعل كان جوادى الأبيض جوادا لطيفا هادئا، لكنه كان بطيئا جدا، وكثيرا ما كان يريد أن يتوقف عن السير، مما جعل إبراهيم يضربه من الخلف، فيندفع الجواد فجأة، وكدت أسقط من فوق ظهره أكثر من مرة، وكان علىّ أن أقبض على رقبة الجواد بشدة.

نهار يونية فى فلسطين شديد الحرارة، كان علينا أن نصعد ونهبط الهضاب الصخرية، مما جعلنى أشعر بالإرهاق الشديد، شعرت حقا بمشقة السفر فى العصور القديمة، وساءلت نفسى: هل كانوا يسيرون هنا بالخف أو الصندل أو ما شابه ذلك؟! لا بد أن الأمر كان شاقا جدا، وضعت "فوطة" على رأسى اتقاء

---

(١) يقع جبل هيرمون أو جبل الشيخ على الطريق الموصلة إلى دمشق، وهو يمتد لتكون هضبة الجولان قمته فى الشمال، وإسرائيل تحتل سفوح الجبل إلى الآن (وقت ترجمة هذا الكتاب ونشره)، ومنذ ٤٠ سنة، وتستخدمها فى السياحة والتزلج. (المترجم)

لحرارة الشمس الشديدة، وفرشت بطانية فوق الجواد، واستمر سفرنا على هذه الدروب الوعرة... شاهدنا الأزهار بين شقوق الصخور، حيث كنا نمضى بين ممرات صخرية حتى وصلنا إلى واد يمتد من الجنوب إلى الشمال، وشاهدنا حقول القمح التى كانت أشبه بنهر كوجا، النهر الأصفر فى الصين، ووصلنا إلى حدود السامرة.

بئر يعقوب

استمر سفرنا عبر حقول القمح، وحين كانت الشمس على وشك المغيب شاهدنا هضبة عالية يبلغ ارتفاعها نحو ٣٠٠ مترا [٢] وهناك شاهدنا مبنى فى أعلى الهضبة (التى هى فى الأصل جبل جرزيم)[٣] . فى يوم من الأيام كان السامريون يعبدون الله هنا فى هذا المبنى الواقع أعلى الهضبة، والآن يتعبد هنا المسلمون، هكذا أخبرنى المرشد[٤].

يتفرع طريق الوادى هنا إلى ثلاثة طرق فى اتجاهات مختلفة، أخذنا الطريق الأيمن حتى يمكن أن نشاهد بئر يعقوب، وبعد أن مضينا على هذا الطريق بقليل شاهدنا مساحة واسعة مملوءة بأشجار المشمش، هنا بقايا معبد هو الآن كنيسة صغيرة لليونانيين، وفى وسط هذه الكنيسة يوجد بئر يعقوب. كان مرشدنا راهبا روسيا عجوزا فى داخل الكنيسة، نزلنا من خلال درج حجرى إلى غرفة سقفها منخفض جداً، ووسط هذه الحجرة شاهدنا البئر، دائرة قطرها نحو متر تقريبا أو أقل، أضأنا شمعة لنشاهد قاع البئر، كانت البئر أوسع قليلا ناحية القاع، كان العمق نحو مترين ونصف، ولم يكن فيه ماء... فقط الحجارة! يا للأسف! هكذا جف ماء البئر منذ مدة طويلة.

---

(٢) ورد فى الأصل ١٫٠٠٠ شاكو، ولشاكو يساوى ٣٠كم. (المترجم)

(٣) يشير إلى الجبل الذى يطلق عليه جبل الطور جنوب مدينة نابلس فى فلسطين، ويرتفع ٨٨١ مترا عن سطح البحر، وتسكن على قمته الطائفة السامرية التى آمنت بالنبى موسى واتخذت التوراة كتابا مقدسا (أى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم)، ويعتبر جبل جرزيم قبلتهم أثناء الصلاة. (المترجم)

(٤) يقصد أن المسلمين بنوا مساجدهم هنا أيضا. (المترجم)

شاهدت صورة بجانب البئر، صورة لامرأة من الطائفة السامرية، فطريق السامرة القديم كان يمر من هنا، من هذه النقطة، ولا شك أن هذه البئر هى بئر يعقوب.

خرجنا من حجرة البئر وجلسنا فى حديقة الكنيسة، كان يمكن أن أشاهد القرية التى يطلق عليها الناس "عسكر"[٥] . أخرجت الإنجيل من جيبى، وبدأت أطالع إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع ، بينما كان يمكن أن أشاهد جبل جرزيم:

"وكان لا بد له أن يجتاز السامرة فأتى إلى مدينة من السامرة يقال لها سوخار بقرب الضيعة التى وهبها يعقوب ليوسف ابنه، وكانت هناك بئر يعقوب، فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيا الذى يقال له المسيح يأتى، فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شىء. قال لها يسوع: أنا الذى أكلمك هو. وعند ذلك جاء تلاميذه، وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة ولكن لم يقل أحد: "ماذا تطلب؟" أو "لماذا تتكلم معها؟" فتركت المرأة جرتها ومضت إلى المدينة، وقالت للناس: هلموا انظروا إنسانا قال لى كل ما فعلت. ألعل هذا هو المسيح؟ فخرجوا من المدينة وأتوا إليه[٦].

تغير لون الحقول، فهذا هو وقت الحصاد، من ناحية الشرق وإلى قمة الجبل كنت أشاهد حقول القمح الذى حان حصاده، كانت سيقان القمح تحت أشعة الشمس وقت المغيب، وهى تنحنى لنسمات الهواء العليل فى نوبات منتظمة تشكل بحرا يموج بألوان ذهبية خلابة. آه! ماذا تعنى السنوات التى مضت منذ ذلك الوقت؟ منذ ألفى عام مازال المسيح يجلس هنا.. عند بئر يعقوب وهو يعلمنا:... من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية[٧]. شكرا للرب!

---

(٥) من القرى التاريخية، ويوجد بمدخلها آثار لأعمدة رومانية، وتشتهر بعين ماء لا تزال قائمة حتى الآن، تتميز ببرودتها صيفا ودفئها شتاء. (المترجم).

(٦) انظر الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا، الإصحاح ٤ : ٤ ـ ٣٠ ، دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط، ط ٤، ٢٠٠٩، ص ٨٣. (المترجم)

(٧) إشارة إلى ما ورد فى إنجيل يوحنا٤: ١٣ ـ ١٤. (المترجم)

ليلة فى نابلس

غادرنا بئر يعقوب، كان هناك قبر يوسف لكننا لم نشاهده، مضينا فى سفرنا هذا حتى وصلنا وادى نابلس، كنا نمضى بين هضبتَىّ جبلَىّ جرزيم حيث كنت أشاهد عن جانبٍ آثار مبان قديمة بينما على الجانب الآخر كنت أشاهد أشجارا قيل إنهم يجمعون ثمارها ويقشرونها ويمضغونها. عند وصولنا إلى نابلس أقمنا فى فندق اللاتين الكاثوليك، وفيما يتعلق بالسكن إذا ما كنا نحمل خطاب توصية يمكن أن نقيم فى أى مكان. توجد فى هذا الفندق غرف قليلة للإقامة، وتوجد غرف لتناول الطعام، والإقامة بالمجان إلا أن الضيف يقدم هبة رمزية عند المغادرة.

المسافة من القدس إلى نابلس نحو اثنى عشر كيلو مترا، وقد ورد اسم نابلس فى الكتاب المقدس العهد القديم هكذا "شكيم"(٨)، يبلغ عدد سكانها الآن (١٩٠٦م) نحو ٣٠ ألف نسمة، وهناك كثير من الأجانب يقطنونها، وتحتل هذه المدينة المرتبة الثانية بعد القدس.

كنت قد قضيت نصف يوم تقريبا على ظهر الجواد، لهذا أشعر بالتعب الشديد فى ظهرى وساقى، بل أشعر بالألم أيضا، لذا لا أريد أن أشاهد أى شىء، كل ما أريده حقا هو أن أخلد للراحة، لكنى طول الليل لم أستطع مقاومة التعب الجسدى فضلا عما أصابنى من لسع حشرة "البق"، وفى النهار كنت قد شاهدت صورة مرسوما فيها سيف يضرب قلب ماريا، ظل هذا المنظر فى مخيلتى ولم أتمكن من نسيانه أو إزاحته من ذاكرتى، مما أقلق مضجعى ومنعنى من النوم.

بعد السامرة، أطلال السامرة

فى يوم الخامس من الشهر ركبت الجواد بعد شروق الشمس، وعندئذ نسيت آلام الليلة الماضية، لا أدرى لماذا أو كيف حدث هذا؟ الطعام فى السامرة أشهى

---

(٨) تعرف أيضا باسم جبل النار ودمشق الصغرى، وفى العهد الرومانى كانت تعرف باسم فلافيا نيبوليس Falvia Neapolis، وشكيم تعنى المكان المرتفع، وهى تقع عند أقدام جبلَىّ جرزيم. (المترجم)

وألذ من الطعام فى يهودا، ففى وادى نابلس تُروى المحاصيل بالماء العذب النظيف الذى تنال منه أشجار الزيتون وأشجار التين والمشمش والتوت والتفاح والعنب وغيرها من الخضراوات نصيبها من الرواء فضلا عن خصوبة التربة، كل هذا جعل الأشجار مورقة خضراء زاهية، سمعت نقيق الضفادع بالقرب من جدول صغير... بعد نابلس اتجهنا شمالا، وبعد ساعتين وصلنا إلى "سبسطية" التى كانت قديما عاصمة مملكة إسرائيل، كان الرومان قد بنوا المدينة على هضبة عند ملتقى أقدام جبل جرزيم فى القسم الشرقى[٩].

شاهدنا هضبة بارتفاع نحو ٩٠مترا[١٠] وهناك زراعات على مصاطب متدرجة، وانتشرت هناك أيضا أشجار الزيتون. أخذنا دورة حول الهضبة حيث توجد أطلال مدينة هيروديس التى بناها الرومان، يوجد عمود من الرخام بطول ثلاثة أمتار ونصف المتر، وهناك أطلال مسرح مفتوح، وأطلال معابد كثيرة بين أشجار الزيتون، ومن أسفل، فى المكان المنخفض يوجد ضريح يوحنا المعمدان وضريح إليشا وضريح عوبديا، ويقدم أهل القرية أحيانا بعض العملات المعدنية نذورا لهذه الأضرحة، ومن قمة هذه الهضبة ومن الناحية الغربية شاهدت مياه البحر الأبيض المتوسط الزرقاء!

بهجة السفر ومتعته

وصلنا عند قرية يقال لها "شيريه"، حيث قاد كل منا جواده إلى ظل أشجار الزيتون، وفرشنا "بطانية" على الأرض، وبدأنا نتناول طعام الغداء قبل الموعد المعتاد بقليل، تناولنا الحليب والخبز والمربى، ثم أخذنا قسطا من الراحة. تجنبت أكل المشمش، لأننى حين تناولت بعض حبات المشمش فى القدس أصابنى مغص شديد فى معدتى، شاهدت نبع ماء وردته بعض النسوة اللواتى ملأن جرارهن، ووضعنها على رءوسهن، وانطلقن عائدات من حيث جئن، بينما كانت أخريات

---

(٩) يشير المؤلف هنا إلى السامرة التى كانت عاصمة مملكة إسرائيل الشمالية، وتقع أطلال المدينة قرب قرية سبسطية على بعد ١٢ كيلو مترا شمال غرب نابلس. (المترجم)

(١٠) فى الأصل ٣٠٠ شاكو، والشاكو يساوى ٣٠ سم. (المترجم)

يغسلن الملابس، كانت بشرتهن جميعا تميل إلى الحمرة القاتمة، وكن حافيات الأقدام، وكان بعض النسوة يعلقن عقودا ويضعن أساور، وكان شعرهن مزينا بنقود معدنية من الفضة تتدلى من أعلى الرأس على الجبهة أو الجانبين، وبعضهن وضعن العملات الذهبية بدلا من الفضية لكن هذا كان نادرا. حين سافرت إلى سوريا وجدت بعض العملات الفضية (المخرومة)؛ فربما تستخدم النساء هذه العملات للزينة، بعد أن استرحنا وأخذنا "تعسيلة" قصيرة، ركبنا ظهور الخيل ومضينا، وفى المساء أصابنا الملل. وضع فيليب منديلا أبيض فوق طربوشه التركى، بينما ثبت إبراهيم طربوشه بشكل معوج مثير للانتباه، واضعا ساقيه فوق الأمتعة، معرضا وجهه لأشعة الشمس، بعدها بدأ كلاهما فى الغناء: ياما ياما وياما ياما ياما... لم أكن أفهم شيئا على الإطلاق، فبدأت أغنى وأنشد شيئا من "ترانيم" الكتاب المقدس.

بعد ذلك وصلنا إلى هضبة غير عالية، حيث توجد قرية صغيرة تكثر فيها أشجار التين والعنب والرمان يسمونها دوتان، وكما ورد فى العهد القديم فقد بيع يوسف حين جاء هنا بأمر من أبيه لرؤية إخوته، فألقى فى البئر ثم بيع بجوار هذا المكان حيث توجد بئر قطرها نحو مترين يسمونها "بئر القافلة؟" ومنذ وقت قديم اشتهرت دوتان بتربية الخراف بسبب وجود هذه البئر، إذ يسهل تربيتها هنا. شاهدت البئر المملوءة بالماء، وشاهدت اثنين من البدو، كانا من جماعة الرهبان، بدآ فى الغطس فى البئر حتى الرقبة وهما يمسكان بحبل متين مثبت عند صخرة على حافة البئر... تعجبت هل هو عميق؟!

يشكل ماء البئر جدولا صغيرا يمضى إلى الحقول التى تُزرع بالخيار، شاهدت حصانا وضع حوافره عند حافة البئر ومد رقبته وبدأ يشرب من الماء بهدوء غريب، يبدو أنه كان سعيدا!

الماء... إنه الماء الحقيقى، الماء العذب، كانت هذه أول مرة خلال سفرى هذا أتذوق فيها طعم الماء الجارى العذب! كنت أمضى عبر الهواء الجاف والجبال الصخرية التى تضربها أشعة الشمس وبيوت الطين، فقد كان كل ما شاهدته من قبل جافا وكالحا، حتى مشاعرى أنا نفسى صارت متداخلة غير واضحة، ثم

أخيرا وجدت هذه البئر... نبع ماء جارٍ، ماء حقيقى يجرى من بين الصخور باستمرا ر دون توقف ، لا يمكن أن أجد الكلمات التى أصف بها هذا الماء، الماء الحقيقى والخضرة، هذا الماء الذى جعل حلقى يرتوى بعذوبته، وتلك الخضرة التى جعلت عينيى تكتحل بجدتها وجمالها، وأنعشت روحى من داخلى... الماء!

حيث يكون الماء يكون البشر، وتكون الحياة، ويتشكل التجمع البشرى، يوحنا ذات مرة كان يحلم بالماء، ماء نهر الحياة، وأيضا النبى محمد نشأ فى بيئة يسودها الجفاف، لهذا كانت صورة الجنة التى وردت فى آيات القرآن الكريم مملوءة بالجداول والأنهار والماء العذب والفاكهة المثمرة، وكله بفضل الماء، لا شك أن الله سيكافئ من يزرع الثمار بالماء والحليب.

مساء عينون

من "دوتان" تحركنا إلى "كاباتشيا" حيث توجد غابة الزيتون التى تعد أكبر مزارع الزيتون فى فلسطين، وكلها أشجار عتيقة، لا أدرى كم ألف سنة مرت عليها، يجمع محصول الزيتون فى سبتمبر، وهم هنا يأكلون الزيتون بعد أن يملحوه، ويستخرجون منه الزيت، ومن زيته يصنعون الصابون أيضا، سوف ننزل إلى أسفل الوادى عند غروب الشمس لنصل إلى عينون[١١].

وصلنا البلدة ونزلنا فى فندق يديره رجل ألمانى، أمضينا اليوم كله مسافرين عبر جبال السامرة، قطعنا طريقا بطول ٢٨ كيلو مترا[١٢]، وبلدة عينون كان يطلق عليها قديما "عين غانم"[١٣] وهى تعلو عن سطح البحر بنحو ٦٥٠ قدما، وهى بلدة صغيرة يبلغ عدد سكانها ٢٠٠٠ نسمة، وتقع على حدود جبال السامرة ومرتفعات

---

(١١) تكتب أيضا عين نون، وهو اسم آرامى بمعنى عيون ، وهى بلدة تجمع عددًا من الينابيع ، وكان يوحنا يعمد هنا بكثرة لتوافر المياه (يوحنا ٣: ٢٣) ولم يتم تحديد المكان، ويقال إنها تبعد عن القدس شمالا بنحو ستة أميال (انظر قاموس الكتاب المقدس) وهناك بلدة فى شمال غرب جنين يطلق عليها عينين تبعد مسافة تقدر بنحو ١٦ كيلو مترا. (المترجم)

(١٢) ورد فى الأصل سبعة ريات، والرى قياس طولى يابانى قديم يساوى أربعة كيلو مترات، ولا يستخدم هذه الأيام. (المترجم)

(١٣) يبدو أن هذا الاسم كان نسبة إلى أكبر عين بالبلدة. (المترجم)

الجليل، كان يمكنني أن أشاهد من نافذة غرفتي بالفندق الجبال البعيدة والناصرة، في المساء تحولت السماء التي يزينها كوكب الزهرة، تحولت في الليل إلى سماء يضيء القمر الفضي صفحتها.

تحت الفندق تنبع عين ماء عذب يجري طول الوقت دون توقف، فيشكل نهيرا يرد عليه البشر والأنعام على السواء، النساء يحملن جرارهن، والرعاة يأتون بقطعان ماشيتهم، الأغنام والحمير والبقر والبعير كلها تمد رقابها إلى حيث يجري الماء، فتروي ظمأها تحت ضوء القمر الفضي... آه الماء! ثم الماء! أصل الحياة.

مرتفعات الناصرة

في السادس من يونية سنصل إلى الناصرة، ركبنا الجياد في الساعة السادسة صباحا، اعتدت الآن على ركوب الجواد، وصار الأمر بالنسبة لي سهلا، قدمنا من القدس، ومضينا عبر السامرة ووصلنا إلى بلدة عينون بعد أن مضينا في دروب صاعدين مرة وهابطين مرة أخرى عبر الوادي، ومن عينون نمضي عبر الجليل وعبر مرتفعات وهضاب وحقول فلسطين.

بعد أن غادرنا عينون بنصف ساعة شاهدنا قرية، بدت لنا من بعيد فوق الجبال، وقد غلب عليها اللون الأبيض، سألت مرافقي عن اسمها فقال: هذه هي بلدة الناصرة!

حين نطق بالاسم دق قلبي وانتشى مثل عصفور صغير... آه الناصرة! هذه هي الناصرة! (١٤).

حين رجع المسيح من اليهودية مع حوارييه أقام في الناصرة، شعر بأنه في موطنه... آه إنها الناصرة، الناصرة قريبة مني الآن، وأنا على مقربة منها، لكن

---

(١٤) في الناصرة حسب الإنجيل، بشر الملاك جبرائيل مريم العذراء بولادة يسوع المسيح، وقد نشأ السيد المسيح فيها وعاش غالبية حياته، ودُعِي يسوع الناصري، وانتسب أتباعه إليها فقيل "النصارى". (المترجم)

مرافقى نبهنى قائلا: إنها تبدو قريبة لكنها فى الواقع تبعد عن هنا نحو ١٨ أو ١٩ ميلا، هذا الميدان الواسع يحيط بالجبل من أسفله بينما فى الشمال يوجد جبل الجليل، ومن الجنوب جبل السامرة، ومن الشرق جبل حرمون (جبل الشيخ) ومن الغرب جبل الكرمل، فهذا المكان مثل قاع فنجان، محاط بالمرتفعات من كل مكان، من الجنوب للشمال حوالى ٢٨ كيلومترا[١٥] ومن الشرق والغرب نحو ٤٨ كيلو مترا[١٦] وينخفض عن سطح البحر الأبيض المتوسط بنحو ٢٥٠قدما، فهو مكان يبدو كما لو كان بحيرة جفت مياهها، والمساحة كلها حقول قمح، يتموج فيها اللون الذهبى. لأول مرة أشاهد تربة زراعية حقيقية فى فلسطين، حيث لا تستخدم أسمدة، ورغم هذا فالقمح ينمو قويا ويُبشّر بمحصول جيد، سمعت أنه فى فصل الربيع تنمو هنا أنواع كثيرة من الأزهار البرية، ويمكننى الآن أن أشاهد أنواعا مختلفة من الزهور، منها زهرة الخطمى وزهرة ديزى البرية وأزهار نبات الذرة والجزر.

كانت هذه الحقول فى يوم من الأيام ميدانا للمعركة التى انهزم فيها الصليبيون على يد السلطان صلاح الدين ...

من أطلال إلى أطلال

حين أرسلت الشمس أشعتها تتلألأ فوق قطرات الندى كنا قد وصلنا عند جبل جلبوع حيث دارت معارك بين شاول ولد يهوناثان والفلسطينيين وسقط الإسرائيليون قتلى عند جبل جلبوع[١٧] ، وشد الفلسطينيون وراء شاول ووراء بنيه وانتصر الفلسطينيون[١٨]. ثم جاء كل رجال إسرائيل إلى داود ليكون رئيسا لهم... كنت أنصت إلى داود يترنم:

(١٥) فى الأصل سبعة ريّات، والرى يساوى ٤ كيلو مترات. (المترجم)

(١٦) فى الأصل١٢ ريًا. (المترجم)

(١٧) ورد ذكرها فى أخبار الأيام الأول: ٩، انظر الكتاب المقدس، ص ٣٢٨، الطبعة المشار إليها سابقا. (المترجم)

(١٨) انظر التفاصيل فى أخبار الأيام الأول ١٠، ص ٣٢٩، المصدر السابق. (المترجم)

جبل جلبوع! أتمنى أن تهطل الأمطار على كل بقعة فيك

هذه الحدائق وهذه الحقول هبة من الله لك

فهناك أيضا أجساد الجنود الشجعان ترقد هنا بين جنباتك

يقول الناس إن هذا الجبل كان مملوءا بالأشجار، لكن اليوم لا خضرة ولا أشجار، فقط جبل أصلع! يعلو فوق سطح البحر بنحو ٤٨٠ مترًا[١٩]، وبعد هذا الجبل وصلنا إلى واد مستو. انطلقنا من حيث المكان الذى وقعت فيه الحرب بين جدعوت والمديانيين[٢٠] فى طريقنا عند جبل جلبوع وحرمون حتى وصلنا إلى وادى الأردن.

فى الناحية الشمالية لجبل جلبوع توجد أطلال عين ماء ورد ذكرها فى الصراع الذى دار بين جدعون والمديانيين، أشار مرافقى إلى مكان قائلا هذا خط سكة حديد يمتد من دمشق إلى حيفا، ويمر من الشرق إلى الغرب. على كل حال وصلنا إلى حرمون، ويطلق على هذا المكان فى العهد القديم مسمى "موريه" شاهدنا مكان المعركة التى دارت بين شاؤل والفلسطينيين، وشاهدنا المكان الذى أحيا فيه يسوع المسيح لامرأة ولدها الوحيد[٢١] والمكان اليوم موحش يضم نحو عشرة بيوت ريفية فقيرة، لكن لا مرأة هناك ثلاث أشجار تين ضخمة جدا، قمنا بفرش بطانية تحت إحدى هذه الأشجار، وأخذنا قسطا من النوم فى القيلولة بعد أن تناولنا طعام الغداء، قضينا هنا نحو أربع ساعات، شاهدت الطيور تأتى لتلتقط ثمار التين، وحتى أطفال القرية كانوا يأتون ليسقطوا ثمار التين، ثم يلتقطوه ويأكلوه على الفور فى جو من المرح والفرح.

---

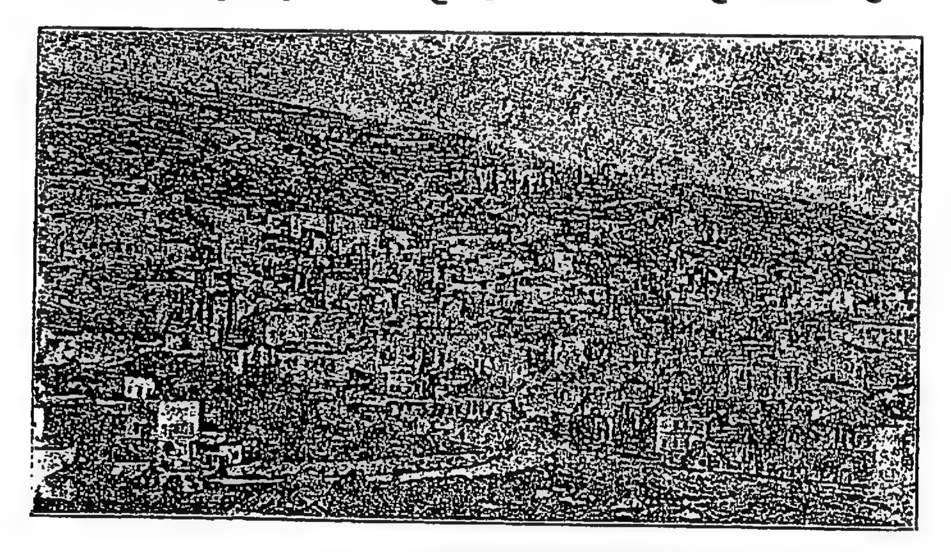
(١٩) فى الأصل ١٦٠٠ شاكو. (المترجم)

(٢٠) انظر قضاة ٦ : ١١ وأيضا ٧: ٢٤، أرسل جدعون رسلا إلى كل جبل أفرايم قائلا: انزلوا للقاء المديانيين وخذوا منهم المياه إلى بيت باره والأردن... إلخ. (المترجم)

(٢١) يشير المؤلف إلى إحياء ابن أرملة بلدة نايين. انظر إنجيل لوقا، الإصحاح السابع ١١ ، ص ٥٧، الطبعة المشار إليها من قبل، وقراءة توضيحية فى الإنجيل ص ٨٨. (المترجم)

إلى الناصرة

فى الساعة الثانية بعد الظهر تركنا ظل شجرة التين متجهين إلى الناصرة، مضينا عبر مرتفع فى الطريق إلى قرية تدعى"نايين"، اسمها مكتوب فى الكتاب المقدس ـ العهد القديم ، شاهدت أطلالا ربما هى أطلال تلك القرية التى ورد ذكرها فى العهد القديم، حين شاهدت "كوخ" فلاح وسط الحقول شعرت بأننى أرى مشهدا من الكتاب المقدس... وأخيرا وصلنا عند أقدام جبال الناصرة، كان الطريق مملوءا بالحجارة والحصى، شاهدنا المبنى الأبيض الذى يقيم فيه الحجاج القادمون إلى الناصرة، ورأينا مبانى أخرى عالية، وأخرى منخفضة، وشاهدت أنواعا مختلفة من الأشجار، منها أشجار السرو والتين وأشجار النخيل بمنظرها الرائع الخلاب، يبلغ عدد السكان المحليين مع الأجانب نحو عشرة آلاف نسمة.



الناصرة آنئذ

فجأة ودون سابق إنذار طلع علينا القمر بدرا منيرا على جبال الناصرة، حين أحسب الأيام التى مرت منذ كنت فى المحيط الهندى أجدها شهرا بالتمام والكمال، اليوم أشاهد القمر بدرا، مثلما شاهدته منذ شهر، بينما كانت السفينة تمخر عباب المحيط الهندى، بدا ضوء القمر خافتا، لكنه فى مدة قصيرة صار لامعا وسط سماء ليل الناصرة، فأضاء البلدة، يا له من مشهد رائع لا يمكننى التعبير عنه بالكلمات، شاهدت فى ضوء القمر ظل امرأة تخرج من أحد البيوت، بدت لى كأنها "ماريا"، تُرى أين الأخ يعقوب؟!

آه يــا نــاصــرة.. آه يــا قــمــر الــنــاصــرة!

جئت هنا، جئت إلى جبال الناصرة حيث تقيم

شاهدت القمر الموجود فى سماء الناصرة منذ أن كنت هنا

شاهدته الليلة مرة ، فشعرت بأننى أراك[٢٢].

مكان تربية الأتقياء الصالحين

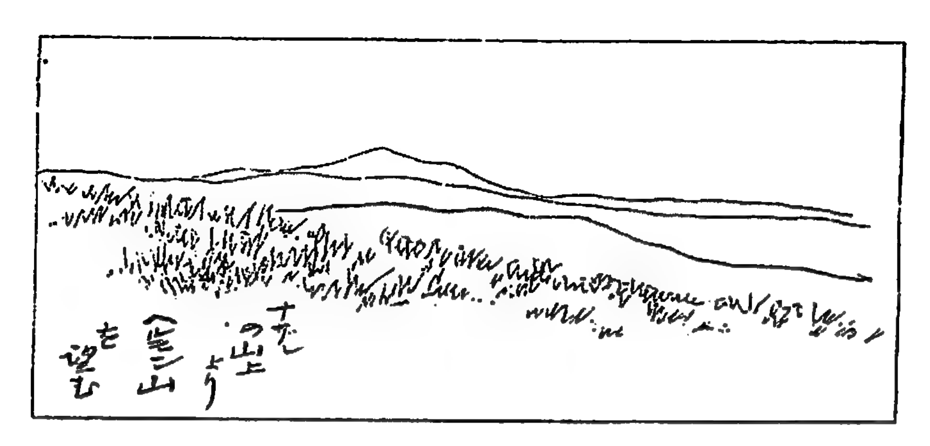
اليوم هو اليوم السابع من الشهر وسوف يعود الخيّال إبراهيم أدراجه إلى الجنوب، فى الصباح الباكر طلبت من فيليب أن نصعد قمة الجبل الذى يعلو سطح البحر بنحو خمسين مترا[٢٣] أخذنا نتسلق المرتفعات إلى أن وصلنا إلى القمة. حين أتطلع من هذا المكان ناحية الجنوب يمكننى أن أشاهد الطريق الذى مضينا عليه بالأمس، ويمكننى أيضا أن أشاهد جبال السامرة، وتحت هذه الجبال أمكننى مشاهدة قرية عينون التى أقمنا بها، وبدت القدس لنا على مرمى البصر، وفى الناحية الغربية كنت أشاهد جبل الكرمل، وعند الجزء الشمالى من هذا الجبل كنت ألمح مياه البحر الأبيض المتوسط الزرقاء، ومن الناحية الشرقية كنت أشاهد الجليل وجبل طبرية ومن بعدها جبال الأردن، ومن الشمال كان يمكننى أن أشاهد جبل حرمون الذى يرتفع عن سطح البحر بنحو ثلاثمائة متر[٢٤] كان لونه أخضر فاتحا وعلى قمته توجد ثلوج لا تذوب طوال السنة[٢٥].

(٢٢) يشير هنا إلى السيد المسيح. (المترجم)

(٢٣) فى الأصل ١٥٠٠ شاكو، والشاكو يساوى ٣٠ سم. (المترجم)

(٢٤) فى الأصل ٩٠٠٠ شاكو. (المترجم)

(٢٥) يطلق عليه أيضا جبل الشيخ، وكان له اسم آخر عند العبرانيين هو سيئون (تثنية ٤٨ : ٤) ويقال إن تجلى الرب يسوع حدث فوقه، وقد ورد ذكره فى ملحمة جلجامش السومرية، وترتب هذه الأيام زيارات لقمة الجبل للصلاة وإضاءة الشموع فى مناسبة يوم الرب "عيد التجلى" فى السادس من آب أو أغسطس. (المترجم)



يمكنك أن تشاهد جبل حرمون عبر جبل الناصرة (صورة رسم يدوى بقلم المؤلف).

تذكرت الرجل الذى كان يرتدى ملابس بيضاء بلون الثلج، شاهد هذا الثلج فقال: ماذا يأتى من الناصرة؟ كانت الناصرة خلفية العهد القديم... ماذا تقول هذه الجبال لى؟ قمة الجبل تقترب من السماء، تطاولها! الناصرة دون شك هى أفضل مكان لتربية الأتقياء الصالحين ، لتربية أهل الله الطيبين!

رغم أن موسم تفتح الأزهار البرية قد انتهى فإن قمة الجبل لا تزال تحتفظ بالكثير من أنواع الأزهار التى ما زالت تغطيها قطرات الندى، وهناك الكثير من الحشرات الصغيرة يمكن أن نشاهدها وهى تتحرك وتقفز هنا وهناك... منظر غير معتاد على الإطلاق، يا له من مشهد! لا يمكننى أن أرسمه بالكلمات!

أطلال الناصرة القديمة

بعد أن نزلنا من فوق الجبل شاهدت كنيسة اليونانيين، فى داخل الكنيسة وعند المكان الذى يعظ فيه راعى الكنيسة شاهدت فتحة علقوا فيها وعاء من النحاس، يجرى إليه ماء نبع من الجبل الخلفى، ومن ثم يجرى الماء من الوعاء إلى خارج الكنيسة ليشكل بئر مريم، وهى بئر مبطنة بالأحجار، ومملوءة بالماء طول الوقت، وقد اعتاد السيد المسيح على أن يشرب من هذه البئر، وأن يصلى حولها.

بعد ذلك شاهدت كنيسة الطائفة اللاتينية، يقولون إنها أطلال بيت مريم، والكنيسة مزخرفة بالشموع والمسامير وبالصور المرسومة بحيث يبدو كل شىء

براقا ولامعا، نزلنا أسفل الدرج وشاهدنا عمودين حجريين، أحدهما المكان الذى وقف عنده الملاك جبريل والثانى المكان الذى وقفت عنده مريم، ومكتوب "هنا كان الجسد" وهناك كهف صغير يسمونه "مطبخ مريم" وشاهدت مكانا ظننته مدخنة إلا أنهم قالوا إنها ماسورة تحمل الماء من الخارج.

وهناك مكان يبعد عن الكنيسة قليلا، يطلقون عليه "ورشة" يوسف، وقد شيدوا مبنى ووضعوا صورة يوسف النجار وبيده منشار، ومريم تجلس تنسج على النول، وهناك صورة لفتاة فى الثانية عشرة من عمرها تقريبا تصنع صليب المسيح، لا يوجد غير هذه الصور.

قرأت رسالة إشعياء[٢٦]:

"روح الله موجود فىَّ، ما كتب قبلا هو أمامى الآن".

أطلال الكنيسة الآن ملك للطائفة اليونانية، وهناك صراع يمتد لسنوات بين الطوائف هنا، مما جعل ملكية أطلال الكنيسة تتحول من طائفة إلى أخرى لأكثر من مرة.

لقد سموه ابن يوسف وابن مريم، لقد قضى هنا سنوات، مر عليه برد الشتاء وثلجه، وانبعاث ينابيع الصيف وحره، وتفتح أزهار الربيع، والقمر الذى يطلع على الجبال، قضى هنا بين مرتفعات الناصرة ثلاثين عاما من عمره ... أسترجع الآن تلك السنوات التى مضت، أود أن أعرف ماذا شاهدت خلالها؟ وبماذا شعرت؟ وماذا تعلمت؟ ومع من تكلمت؟ وكيف ضحكت؟ وكيف تعاملت مع أطفال أهالى الناصرة؟ وكيف عشت طفلا وأخا ورب أسرة؟ وماذا صنعت بعد موت الآب؟ وفيم فكرت؟ وبماذا اعتقدت؟ وكيف كانت تقضى الأيام؟ فى خاطرى تساؤلات لا نهاية لها، فهذا المكان ما هو إلا صخور وهضاب، وخيالى الآن مملوء بالتاريخ، وعبق التاريخ يتسلل إلى داخل ذاكرتى، وتحت تربة الناصرة بذور لا يعلم نبتتها إلا الله، والناس الذين قدموا للحج هنا، إلى هذا المكان، يحملون بداخلهم حب استطلاع كبيرًا، يبحثون هنا وهناك فى مدينة الناصرة عن ورش النجارين! مع أنه لا يوجد هنا أى نجار، لا يوجد سوى طفلة بريئة أشاهد ظلها خارجة من باب الدار!

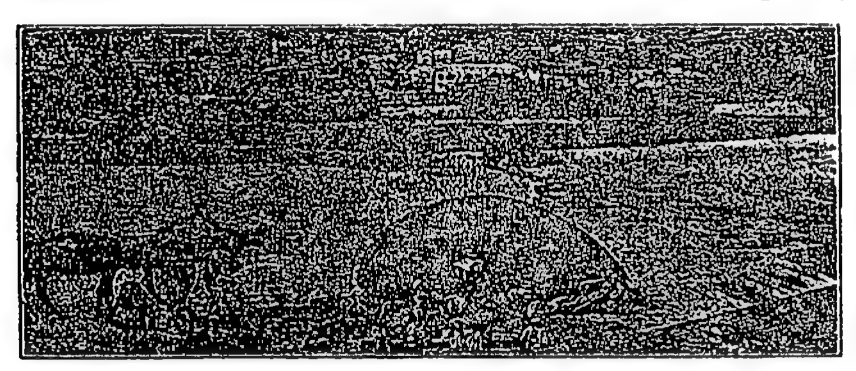
---

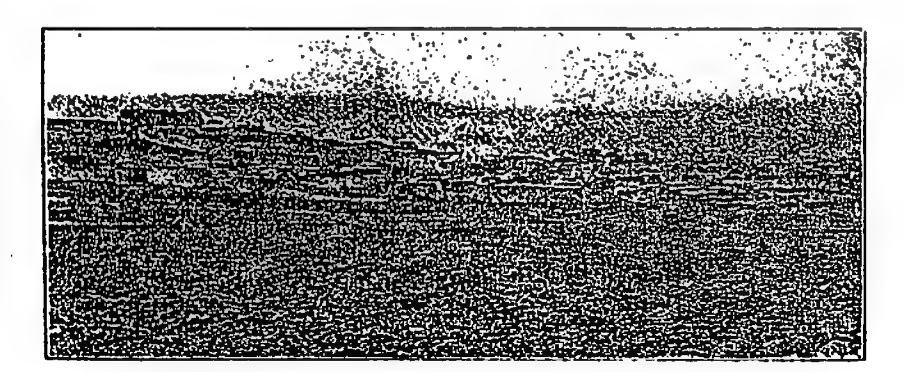
(٢٦) إشعياء معناه خلاص الرب، وهو صاحب سفر إشعياء فى العهد القديم من الكتاب المقدس، ورد فى إنجيل لوقا : فلما قدم إليه كتاب النبى إشعياء، فلما فتحه وجد المكان الذى كتب فيه "روح الرب علىَّ لأنه مسحنى لأبشر الفقراء ..." انظر إنجيل لوقا ٤ : ١٨ ص ٣٨ ـ ٨٤، قراءة توضيحية فى الإنجيل، مصدر سابق. (المترجم)

إلى طبرية

فى الساعة السادسة من صباح يوم الثامن من شهر يونية رحلت عن الناصرة على ظهر الجواد، ومررت بمرتفعات الناصرة، تلك البلدة التى تحمل أغلى الذكريات التى استقرت فى أعمق أعماق ذاكرتى.

بعد ذلك شاهدنا قرية صغيرة، يقول الناس إنها موطن يوحنا؟ بعد أن غادرنا الناصرة بساعة ونصف، وصلنا إلى قانا التى ورد ذكرها فى الإنجيل ضمن حكاية العرس، وقانا هى موطن نثنائيل أحد تلاميذ المسيح، وقد دعى المسيح إلى العرس حيث حدثت معجزته الأولى حين حول الماء التى فى الأجران إلى خمر طيب المذاق(٢٧).





بحيرة طبرية

---

(٢٧) كانت هذه المعجزة هى الآية الأولى التى أجراها يسوع فى قانا بالجليل فآمن به تلاميذه، كما ورد فى إنجيل يوحنا السفر الثانى. (المترجم)

هنا فى كنيسة الطائفة اللاتينية لا يزال يُحتفظ بقطعة من الحجر وقطعة من العمود، وفى كنيسة الطائفة اليونانية لا يزالون يحتفظون بالجرن الحجرى الذى استخدم حين حوَّل المسيح الماء إلى خمر، لكنى لم أتمكن من مشاهدة أىٍّ منها، وتضم قرية قانا الآن نحو ألف نسمة، شاهدت الأطفال اليهود يسرعون ناحية الزائرين يبيعونهم مفارش قماش صغيرة مزخرفة توضع عادة تحت المزهريات، وبينما كان الجواد يمضى بى كنت أشاهد بقايا أطلال مبان رومانية، وقادنى الطريق صعودا وهبوطا إلى مسطحات مرتفعة بين الجبال.

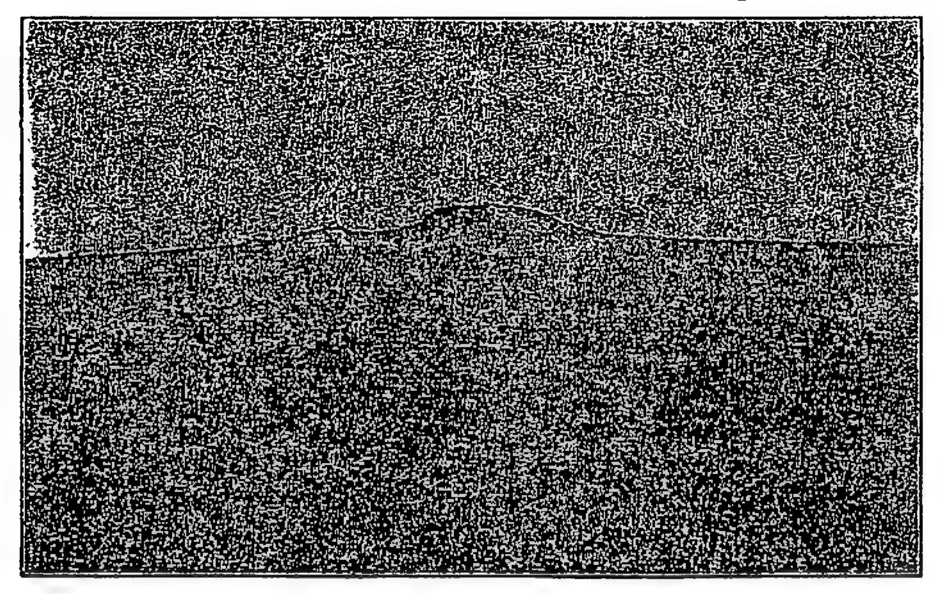
جبل الموعظة

ها هو الجبل، هنا ألقى المسيح موعظته الشهيرة المعروفة باسم "موعظة الجبل" قمة الجبل مستديرة، هناك أشجار نخيل قصيرة، الانحدار ليس بالشديد، هذا هو الجبل الذى أشار إليه متىّ فى إنجيله فى الإصحاح الخامس والسادس والسابع(٢٨) . شاهدت على جانب الطريق كثيرا من الأزهار البرية، فوضعت لها أسماء من عندى: زهرة الخطمى السورية ، وزهرة الكارنيشن الوردية السورية، والزهرة الصفراء الصغيرة السورية، والتقطت بعضا منها. هذا هو جبل الجليل، ليس بالجبل الموحش، فهو يبدو جبلا مألوفا، لم أر بحر الجليل (بحيرة طبرية) بعد، أظن أن المنظر سيتضح لى بعد قليل، عند أقدام الجبل تغطى الخضرة هذه المساحات كلها فى الربيع، وربما يعطى هذا انطباعا بأن الناس يشتاقون إلى القدوم هنا للنزهة. إن ما يتوارثه الناس من حكايات عن جبل الموعظة لا يعتوره أى شك، ففى شهر مارس وأبريل تكسو الخضرة هذه المنطقة، وتتفتح الأزهار البرية هنا وهناك، وتهب نسمات الربيع العليلة بينما الطيور تحلق منتشية، تشقشق، وتزقزق، وتغرد بأجمل الألحان وسط هذا الجو البديع... "الربُّ" يخاطب الناس، نحو خمسة آلاف شخص ينصتون بشوق وسط الطبيعة الغنّاء.. يمكننى أن أتخيل ذلك المشهد جيدا، وبينما أتجول فى الماضى البعيد أفقت على

---

(٢٨) كان السيد المسيح قد ألقاها حوالى عام ٣٠ م على تلامذته وحشد كبير من الناس، ومن أهم ما ورد فيها إعلانه أنه لم يأت لينقض ما جاء قبله بل ليكمله. "ما جئت لألغى بل لأكمل". إنجيل متى، الإصحاحات ٥ ـ ٦ ـ ٧. (المترجم)

صوت إبراهيم ينادينى، لم أنتبه، فقد كنت غارقا فى الخيال، كنت أتخيل ما دار منذ عهود طويلة هنا على هذا الجبل، لكن نداء إبراهيم أيقظنى، جعلنى أعود من الخيال إلى الواقع، وكان علىَّ أن أمضى على درب الحقيقة... وأواصل رحلتى.

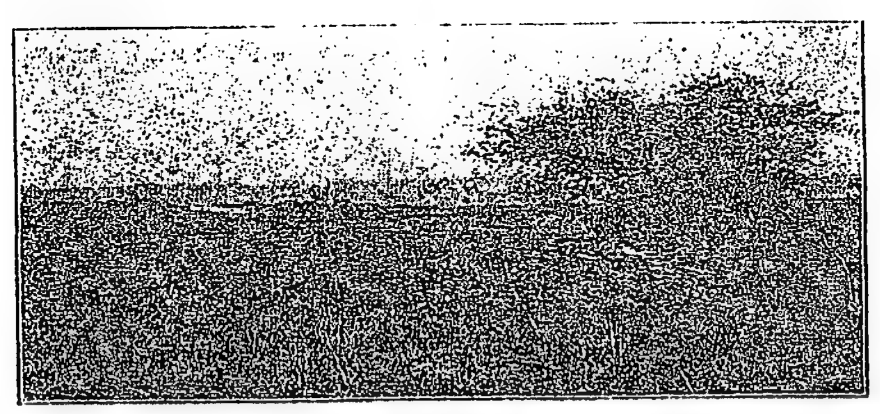


جبل الموعظة

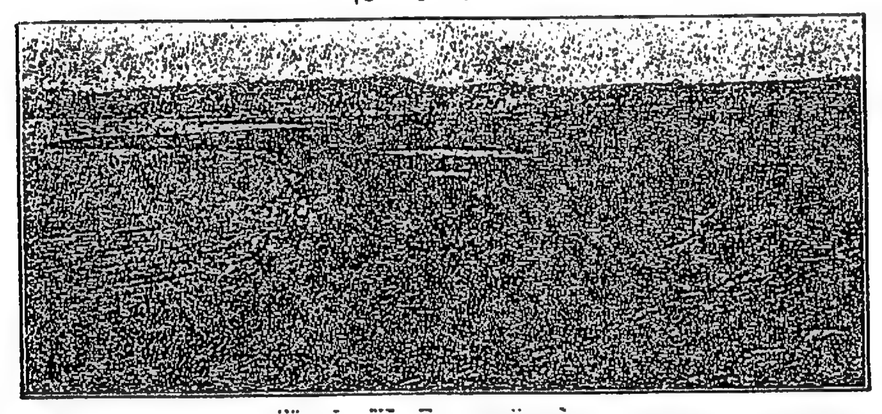
قرية طبرية

بعد جبل الجليل ظهر أمامى جبل حرمون، هناك بحيرة تحت الجبل، شاهدت المكان الذى وقعت فيه المعركة التى دارت منذ سبعمائة سنة وانهزم فيها الصليبيون على يد صلاح الدين. قدم ناحيتى طفلٌ وطلب منى "بقشيشا"، وتعجبت هل يا تُرى هذا الطفل ينتمى إلى أحفاد صلاح الدين؟ لكنى شاهدت أباه بعد ذلك ينهره بشدة ويؤنبه. ولأول مرة أشاهد ملامح أحفاد العظماء تظللنى؛ فشعرت بسرور عظيم.

وصلنا بعد ذلك إلى جانب البحيرة، ورغم أنها بحيرة صغيرة فإن مرافقى قال: تحت جبل حرمون نشاهد طريقا صغيرا يؤدى إلى البحيرة، وفى شمال البحيرة هناك منطقة زرقاء قاتمة هى أطلال كفر ناحوم، بيت صيداء، وكانت "مجدل" مطمورة تحت هذه الهضاب، بينما "طبرية" كانت ساكنة تحت أقدام الجبل لمدة... أخذت أشاهد البحيرة كما لو كنت أحلم.



أطلال كفر ناحوم



البحيرة

حملنى الجواد إلى قرية طبرية حيث وصلتها فى الساعة الحادية عشرة، ذهبنا إلى فندق طبرية الذى يملكه رجل ألمانى، يبعد الفندق عن الناصرة مسافة ٢٨ كيلو مترا، شاهدت عند مدخل القرية أطلال جدران قلعة قديمة، يبلغ عدد سكان القرية٤٠٠٠ نسمة، ثلثاهما من السكان اليهود، والقرية مشهورة بأنها مركز لدراسة اليهودية، ولا يوجد حول البحيرة غير هذه القرية التى تمتلك أطلالا ترجع إلى الأزمنة القديمة، وطبرية العصور القديمة تبعد عن هنا مسافة ٤٢ مترا(٢٩) جنوب طبرية الحالية.

---

(٢٩) فى الأصل ١٤جوًا، والجو وحدة قياس يابانية قديمة تساوى ٣ أمتار. (المترجم)

فوق سطح البحيرة

بعد الظهر أخذت قاربا شراعيا لأتجول فى البحيرة، شاهدت بعض البيوت، بعض أساساتها كان قائما داخل ماء البحيرة، وأسوار بعض البيوت القديمة كانت غارقة فى الماء، يقال إن زلزالا أصابها مرة فتهدمت معظم البيوت، وغاصت فى البحيرة. مر القارب الصغير بالقرب من أطلال كفر ناحوم، كان معى بالقارب ثلاثة أشخاص، قاموا بنشر شراع القارب لأن الرياح واتتنا، فبدأ القارب ينساب على سطح ماء البحيرة فى هدوء عجيب، كان لون الماء الذى يميل إلى الخضرة صافيا رقراقا، كان البحارة يشربون الماء مستخدمين علبة من الصفيح، يقولون إن عمق البحيرة حوالى ١٥٥قدما، وهى منخفضة عن سطح البحر الأبيض المتوسط بنحو ٦٨٠ قدما، نحن الآن فى شهر يونية، تشتد الحرارة وبخاصة بعد الظهر، كنت أفرد شمسية فوق رأسى لاتقاء حرارة الشمس، وكان علىَّ أن أضع الماء فوقها لأجلب البرودة نحوى، لكنها كانت تجف خلال خمس دقائق بفعل الرياح وبفعل أشعة الشمس المحرقة، كان الأمر صعبا للغاية! وصار البحارة مملين!

يبلغ طول البحيرة من الجنوب للشمال نحو ٢٠ كيلو مترا[٣٠] وعرضها ٨ كليومترات[٣١] ، وحولها من الناحية الشمالية هضاب ومرتفعات وبعض القرى، لكن من الناحية الشرقية لا يمكن أن أشاهد أى مبنى، لكنى شاهدت بعض المناطق المزروعة بالقمح، وربما يعيش هناك بعض الناس، لست أدرى! معظم الجبال لا يوجد فوقها أشجار أو أعشاب خضراء، لا يوجد إلا قمم الجبال المسطحة الداكنة، فهى جبال يمكن أن نسميها الجبال الساكنة النائمة؛ إذ لا توجد خضرة تنمو وتتكاثر وتثير الحركة فوقها، ويرجع ذلك إلى أشعة الشمس الحارقة... وبعد ساعتين من التنزه بالقارب الشراعى وصلنا إلى أطلال كفر ناحوم حيث شاهدت أحجارا كثيرة متنوعة.

---

(٣٠) فى الأصل ٥ ريات، والرى يساوى ٤ كيلو مترات. (المترجم)

(٣١) فى الأصل ٢ رين. (المترجم)

أطلال بحيرة طبرية

هذا هو المكان الذى شهد عدة معجزات، فكفر ناحوم مدينة المسيح الثانية بعد الناصرة، وشهدت البلدات الأخرى مثل كورزين وبيت صيدا الكثير من معجزاته، إلا أن أهلها لم يتوبوا فتنبأ لها المسيح بالخراب، وقال عن كفر ناحوم "إنها إلى قعر الهاوية ستهبط"[٣٢]. نزلنا من القارب وتركنا البحيرة، ومضينا وسط بساتين أشجار المشمش، لجأنا إلى مقر الطائفة اللاتينية هربا من أشعة الشمس المحرقة، نشعر هنا بجو يذكرنا بأهل الأزمنة القديمة، شاهدنا بقايا أعمدة يحتفظون بها، تبدو كأنها أعمدة أثرية أصلية، يقول الناس إن معجزة المشلول الذى أنزل من السقف، وإحياء ابنة بائير، وشفاء عبد قائد المائة، قد حدثت هنا[٣٣]. كنت أحملق فى المبنى مسترجعا التاريخ البعيد.

بعد أن أخذت قسطا من الراحة تحت ظلال هذا المبنى أخذت القارب مرة أخرى واتجهت غربا، شاهدت حقول القمح التى تمتد على مرمى البصر، وشاهدت الماء الجارى الذى يساعد الأزهار البرية على الازدهار والتفتح، وبعد مدة شاهدت كنيسة تحيط بها بل تغطيها أشجار السرو الفارهة، وفى مكان ليس بالبعيد شاهدت النواعير وطواحين الماء.

الماء يتدفق ويجرى باستمرار دون توقف، يقول بعض الناس هذا بيت صيدا الذى ورد ذكره فى الإنجيل "العهد الجديد"، لكن هناك من يقولون إن هذا ليس بيت صيدا، وهناك رأى ثالث يقول إن بيت صيدا اسم لموقعين اثنين وليس اسما لموقع واحد. كثير من الباحثين يقولون كلاما مختلفا، ولا أدرى ما هو الصحيح منه، وعلى كل حال أنا أعتقد أن موقع البحيرة والجليل هو نفسه الموقع منذ العصور القديمة، وعلى الأقل منذ ١٨٠٠ سنة لم يتغير حتى اليوم.

---

(٣٢) انظر ما جاء فى إنجيل متى، ١١: ٢٣، ص ٢١ ، قراءة توضيحية فى الإنجيل. (المترجم)

(٣٣) انظر إنجيل متى، الإصحاح الثامن والتاسع. (المترجم)

المسافة من نهر الأردن حتى القيصرية[٣٤] حوالى ١٢ كيلومترا[٣٥] وبين هذه المنطقة توجد بلدات بيت صيدا وكفرناحوم ومجدل. بعد قليل وصلنا إلى القيصرية شاهدت فى الماء أزهارا جعلتنى أتعجب، فهذا شىء غير عادى، والمنطقة من مجدل حتى بيت صيدا تبلغ كيلو مترين عرضا[٣٦] و٤ كيلو مترات فقط طولا[٣٧] وهذه المنطقة مملوءة بالحشائش والأعشاب، وتوجد بها عيون ماء جارية تشكل نهرا صغيرا يجرى ليصب فى البحيرة، كان خرير هذا الماء مثل صوت قطة تخرخر، حاولت أن أشرب هذا الماء... يا له من ماء عذب! لا يمكننى أن أعبر عما انتابنى من شعور بعد أن شربت هذا الماء العذب، هذا هو الماء بحق. شاهدت على شاطئ البحيرة الرملى محارا وقواقع متناثرة، ووراء الشاطئ الرملى توجد أشجار التوت البرى، والورد البلدى، وأشجار أخرى لا أعرف أسماءها. شاهدت "سلطعون"... انزعج كثيرا منى، ونفر بعيدا عنى، فجلست على الشاطئ الرملى، وشعرت بالهواء العليل، بينما كنت أقطع الوقت بمشاهدة الجبل من الناحية الشرقية من البحيرة.

ركبت القارب مرة أخرى ورجعت ثانية إلى طبرية، فى الجزء الجنوبى من حقول القيصرية وتحت أقدام الجبل بالقرب من ماء البحيرة يوجد نحو ١٥بيتا طينيا لا يعيش فيها أحد، يقول الناس إنها أطلال المكان الذى كانت تعيش فيه مريم المجدلية. حين وصلت إلى طبرية كانت الشمس على وشك الغروب، وكان الهواء قد بدأ يهب عبر البحيرة، بينما كان بعض الناس يستحمون فيها، وكان البعض الآخر يرشون الجياد بالماء وينظفون أجسامها، بينما جلس بعض الناس على الشاطئ فى استرخاء، يتمتعون بهواء المساء البارد ، وكان بعض الصيادين يرمون بشباكهم ليصطادوا السمك.

نزلت من القارب، ووضعت الماء فى فمى وتمضمضت، وغسلت رأسى بالماء، وغسلت يدىّ، ثم جلست على صخرة قريبة، وبدأت أفكر واستغرقت فى حالة تأمل مدة طويلة!

---

(٣٤) وتنطق "القيسارية"، بناها هيرودس الكبير الذى عاش بين ٧٤ قبل الميلاد و٤ ميلادية. (المترجم)

(٣٥) ورد فى الأصل ٣ ريات، والرى وحدة قياس طولية يابانية قديمة، وهو ٤ كيلو مترات. (المترجم)

(٣٦) فى الأصل نصف رى.

(٣٧) فى الأصل وريًا واحدًا.

الجليل مكان شاعرى مثل قصيدة شعرية

الجليل! آه يا الجليل ! تربتك تتميز بالخصوبة، جبالك هادئة توحى بالسكينة، بحيرتك رقراقة صافية!

يسوع المسيح! أنت ابن هذه الطبيعة، أنت ناظم الشعر، أنت ابن القرية، أنت إنسان بسيط عادى، كنت تتعبد أمام بحيرة الجليل، كنت تُعلم فوق القارب، كنت تُعلم فى هذا الوادى، جعلت من الصيادين حوارييك، عطفت على النساء والأطفال، وأوصلت إيمانك إلى عقول الناس وقلوبهم، وعلَّمت الأطفال الصغار الحقيقة الخفية، لقد نشأت فى الجليل، والجليل لها مكانة خاصة بالنسبة لك... "سوف أولد من جديد، لا بد أن أذهب إلى الجليل...". هذا شعور إنسانى طبيعى، أن يرغب إنسان عاش فى مكان ما أن يعود إلى موطنه مرة أخرى، إن حبة قمح تجف وتنتهى تنتج سنبلة فيها عشرات الحبات... لا يمكن إنقاذ الآخرين دون تضحية ودون فداء، لقد كنت فداء للبشرية ، أنت الحب كله، لقد ذهبت بشجاعة إلى حيث قدَّمت نفسك فداء على الصليب، معلنا النصر إلى الأبد.

إن استمرار الحياة والموت مثله مثل الماء، فيمكن أن نشاهد قطرة من ندى هرمون تتدحرج إلى ماء البحيرة، ثم يمضى ماء البحيرة إلى البحر الميت، هذه دورة مستمرة لا تتغير، يا إلهى! حبك يصل إلى الأعماق، ذكاؤك عميق، قوتك عميقة جدا، يسوع المسيح شرح للناس كيف يعيشون، حياة المسيح وموت المسيح هما لنا مثال نحتذيه، شاهدنا ما فعلت، يا أبانا كم أحببتنا! حين أحببتنا، أحببتنا بعمق، أدركنا أننا أبناؤك أبناء الرب، لك العظمة إلى الأبد!

نهر الأردن مرة أخرى

فى الساعة التاسعة من صباح يوم التاسع من يونية أخذت القارب، كنت ذاهبا لأركب القطار المتجه إلى حيفا، اتجه القارب جنوبا حيث وصلنا بعد حوالى ساعة ونصف إلى قرية صغيرة تسمى "سيماك؟"، كان أمامى وقت طويل قبل الموعد المحدد للقطار، لذا كانت فرصة لأشاهد القرية. الماء يبدأ من هنا، من جنوب غرب البحيرة، حيث يولد نهر الأردن من جديد من هذه البقعة، ولون ماء بحيرة طبرية أزرق فاقع، وتنمو تحت ماء البحيرة بعض الأزهار البرية، وهناك جسور صغيرة تمتد إلى داخل البحيرة، تساعد الناس على الوصول إلى القوارب، لكن لا يوجد أى مكان ظليل. أردت أن آخذ راحة، فبحثت عن مكان ظليل، ووجدت ظل صخرة كبيرة فأويت إليه، هذا النهر ينبع من جبل هرمون ومن جبل لبنان، ويلتقى الفرعان معا ليشكلا بحيرة "بازونى" ومن هذه النقطة يسقط شلال الماء من ارتفاع١٧٠٠ قدم ليشكل بحيرة "هيوريه؟" ثم يسقط ثانية من ارتفاع٦٩٠ قدما ليصل إلى بحيرة طبرية، ومن هنا من بحيرة طبرية ينساب إلى البحر الميت لمسافة ٦١١ قدما، وإذا رسمنا خطا مستقيما من البحر الميت وصولا إلى منبع نهر الأردن فإنه يشكل ١٢٧ميلا.

الماء كائن حى يتحرك ، قطرة ماء واحدة تنزل فى البحيرة، ويتحرك الماء إلى النهر ثم يتكون شلال الماء المنهمر، ويمضى الماء هبوطا وصعودا إلى أن ينتهى به المطاف ليموت فى البحر الميت، لكن الماء لا يموت حقا؛ فسوف يعلو ثانية إلى السماء وينزل مطرا ويعيد دورته، وهكذا شاهدت حياة يسوع المسيح ممثلة فى هذا الماء، هنا يمكن أن نشاهد أسطورة الأردن... كم هو شيق تاريخ الماء! أجلس بالقرب من هذا الماء، ماء نهر الأردن، أتطلع إلى جبل هرمون من حيث ينبع النهر، وأتطلع إلى سطح البحيرة، وتحت أقدامى تجرى مياه النهر، أفكر فى مصير هذا الماء، لا يمكننى أن أعبر عن مشاعرى، وما يدور بداخلى، أقول وأقول ثانية وأكرر: "إلى الأبد يا نهر الأردن! ".

عبور الجليل

تحرك القطار فى الساعة الثالثة بعد الظهر، هذا القطار تابع للحكومة التركية، تديره وتشرف عليه، وقد تم افتتاح هذا الخط بين دمشق وحيفا، وهناك

ثلاث رحلات فقط فى الأسبوع، يقولون إنهم ينشئون الآن خط سكة حديد يربط بين دمشق ومكة فى الجزيرة العربية، يسمونه خط سكة حديد الحج (الحجاز).

عبرنا جسر نهر الأردن، ومضينا تجاه الغرب، على الشمال جبال الجليل وعلى اليمين هضبة هرمون، شاهدت الناصرة على قمة الجبل، كان القطار يمضى بالقرب من جبل الكرمل، وشاهدت نهرا صغيرا يطلقون عليه اسم كيشون، ويقال إن إيليا دعا الرب هنا فاستجاب له، وقتل إيليا أنبياء البعل(١).

بعد مدة مر بنا القطار من حقول عكا، وفى الساعة السابعة مساء وصلنا إلى ميناء حيفا... وهنا انتهت رحلتى إلى فلسطين، وسيرجع مرافقى فيليب فى اليوم التالى وهو يوم العاشر من يونية من حيث أتى، أما أنا فسأمضى إلى حيث عقدت العزم، إلى روسيا.

سوف أنتظر السفينة فى حيفا خمسة أيام، من فوق رأسى شاهدت جبل الكرمل، وشاهدت مدينة عكا، ومن ليلة التاسع من يونية حتى صباح يوم الرابع عشر منه لم أتحرك هنا أو هناك، قبعت فى غرفتى بفندق "نصار" وأخذت قسطا وافرا من الراحة.

شذرات

الرب ليس فى الهواء الواسع! والبذور لا تحتاج إلى مساحة واسعة لتنمو!

***

هذه المساحة لا تتعدى ١٦٠ كيلومترا طولا و٤٠ كيلومترا عرضا(٢) كنت أتعجب، فقد كانت مساحة المنطقة التى شهدت نشاط المسيح صغيرة جدا، وآثار يسوع المسيح هنا هى فقط السماء والهضاب والجبال. الجسد اختفى، لكن الروح

---

(١) إيليا هو باليونانية أيلياس، وهى الصيغة المستخدمة فى العربية إلياس، وقد ورد فى سفر ملاخى النبى أن الرب تكلم إلى إيليا ليمسح ياهو ملكا على إسرائيل... وفى نهاية أيامه ذهب مع اليشع إلى الأردن ، وقد ورد ذكره فى سفر يوحنا وفى سفر متى أيضا، ونهر كيشون يجرى بالقرب من حيفا. (المترجم)

(٢) فى الأصل ٤٠ ريًا طولا و١٠ ريات عرضا. (المترجم)

لا تزال باقية... يا للأسف! يا له من مكان يبعث على الحزن، مكان الفداء، مكان التضحية، أتمنى لو يعاد المشهد من جديد!

***

فلسطين مملوءة بالكنائس، فلسطين مزدحمة، مملوءة بالصخب والجلبة والضوضاء، لذا لم أتمتع بالشعور الروحانى، لم أنل نصيبا من السكون الروحى، تمنيت لو أتخلص من ضوضاء الزحام الشديد والصياح... حين تبدأ الشمس بالمغيب، وتتحول السماء إلى لون الشفق الأحمر، ثم تبدأ النجوم تتلألأ على صفحة السماء، يبدو المنظر كأن الدنيا قد سكنت، فيثير هذا المنظر فى داخل الفؤاد مشاعر الحزن، ويجعلنى أسترجع أحداث الأزمنة الخوالى!

***

أعتقد أن أفضل موسم للسياحة فى فلسطين هو فصل الربيع، وبخاصة فى شهرى مارس وأبريل، حيث يمكن للمرء أن ينال كل شىء، ولا يوجد أى خطر قد يحيق بالسياح، ومن الأفضل للمرء أن يمشى بنفسه، ويمكنه أيضا أن يأخذ عربة حنطور أو يؤجر جوادا أو يركب القطار، كنت أحمل نعلا يابانيا من القش، وهو نعل يابانى تقليدى، لكننى للأسف لم أستخدمه، وتأسفت على حملى له هذه المسافة الطويلة دون أن أستفيد منه.

***

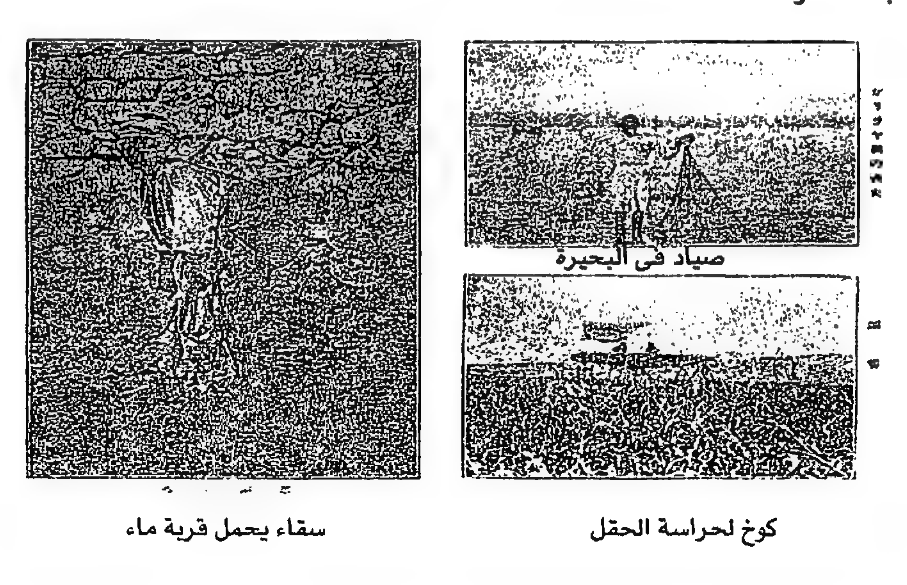
أهل الشام فى معظمهم يعملون بالزراعة والرعى، وهم فى الأغلب فقراء، شاهدت الوشم مرسوما على أيدى الرجال والنساء وعلى أذرعتهم وجباههم ووجوههم، وتتزين المرأة عادة بعقود وأساور تتدلى منها قطع من العملات الفضية أو الذهبية، وشاهدت نساء الطبقة الدنيا يمشين حفاة، بينما يغطى نساء الطبقة العليا أنفسهن بثوب حريرى أسود اللون أو بلون أزرق فاتح أو قاتم، من الرأس إلى أخمص القدمين.

***

ذكر لى مرافقى فيليب أن أهل الشام الأصليين يتحولون إلى المسيحية تدريجيا، فالبريطانيون يبذلون نشاطا كبيرا فى التنصير، وقال فيليب أيضا إن الناس هنا لا يشعرون بالارتياح للحكومة التركية، وهم يتمنون أن يأتى البريطانيون هنا، فمصر على سبيل المثال سعيدة فى ظل البريطانيين(٣).

***

هنا كثير من الذباب والناموس والبق، شاهدت الثعابين بالقرب من بحيرة طبرية، شاهدت أحد الصبية فى الفندق يقتل ثعبانا ويغمسه فى الكحول، فى ذلك الفندق يبيعون هذه الثعابين والأفاعى والحشرات المحفوظة فى الكحول والمحنطة، ويبيعون أنواعا من السمك غير معروفة لى، كما يبيعون الطيور المحنطة مثل أبى قردان والغربان والعصافير، إلا أننى لم أشاهد حيوانات برية على الإطلاق، والنباتات فى وادى الأردن كثيرة، فالخضراوات تشمل أنواع الخيار والقثاء والفاصوليا الخضراء والطماطم والبطاطس والباذنجان، ومن الفاكهة المشمش والخوخ والتفاح الصغير والتوت، أعتقد أنه بالقرب من دمشق توجد "جنة" الفواكه!



صياد فى البحيرة

كوخ لحراسة الحقل

سقاء يحمل قربة ماء

(٣) هذه الآراء التى نقلها المؤلف عن مرافقه فيليب تحتاج بالضرورة إلى مراجعة، وفى الجزء الثانى من الرحلة شاهد المؤلف ثورة ١٩١٩م فى مصر وعبر عن مشاعر مختلفة. (المترجم)

الينبوع المتجدد

من الحماقة أن نفكر هذه الأيام فى البحث عن آثار أقدام المسيح فى فلسطين، وحتى لو وجدت بقايا عظام كتب عليها "هذه عظام المسيح"، فماذا عساى أن أفعل؟ لماذا جئت إلى هذا المكان من أقصى الشرق لأبحث عن ماء الحياة؟

منذ ثلاث سنوات كنت أفكر وأفكر فى ضرورة تغيير حياتى، استرجعت شريط سيرة حياتى المخجلة... ذات ليلة رأيت حلما:

"كنت أحمل أمى على ظهرى ، وأتسلق كما لو كنت أتسلق جبل السامرة، كنت أشعر بالعطش الشديد، وبعد مدة وجدت ماء ينبعث من باطن صخرة، صرخت وناديت: يا أماه! انظرى هذا ماء الحياة، لكنى بعد أن صرخت أفقت من حلمى".

قبل أن أبدأ رحلتى هذه نظمت شعرا لوداع أمى:

أشعر أن هذه هبة من الله

أن يهدينى إلى نبع ماء الحياة

أتذكر أن الأستاذ أوه يومئى Oh Yomei الصينى نظم شعرا جعلنى أتذكر ماء الحياة:

عن يسوع المسيح ما زلت أبحث

ابحث عن ماء الحياة

أعتقد انه موجود فى أعماق فؤادى

ذلك الذى أبحث عنه

"أما مريم فظلت واقفة فى الخارج تبكى عند القبر، وبينما هى تبكى انحنت إلى القبر، فرأت ملاكين بثياب بيض، جالسين حيث كان جثمان يسوع موضوعا، واحدا عند الرأس والآخر عند القدمين، فسألاها: "يا امرأة! لماذا تبكين؟" أجابت:

"أخذوا سيدى، ولا أدرى أين وضعوه" قالت هذا والتفتت إلى الوراء، فرأت يسوع واقفا، ولكنها لم تعلم أنه يسوع، فسألها: "يا امرأة لماذا تبكين؟ عمن تبحثين؟" فظنت أنه البستانى فقالت له: "يا سيد إن كنت أنت قد أخذته فقل لى أين وضعته لآخذه" فناداها يسوع: "يا مريم!" فالتفتت وهتفت بالعبرية: "ربونى" أى يا معلم. فقال لها: "لا تمسكى بى! فإنى لم أصعد بعد إلى الآب، بل اذهبى إلى إخوتى وقولى لهم إنى سأصعد إلى أبى وأبيكم، وإلهى وإلهكم". فرجعت مريم المجدلية وبشرت التلاميذ قائلة: "إنى رأيت الرب!" وأخبرتهم بما قال لها[٤].

(٤) وردت ترجمة النص باليابانية، وقد نقلنا النص عن العربية من كتاب "قراءة توضيحية فى الإنجيل"، ط٢٠٠٩م، الكنيسة الإنجيلية بالقاهرة (إنجيل يوحنا ٢٠ : ١١ ـ ١٨). (المترجم)

بحر التاريخ والجزر الحالمة

(من حيفا إلى القسطنطينية)

ملامح فينيسيا وسماتها

فى الساعة التاسعة من صباح يوم الرابع عشر من يونية غادرت فلسطين متجها إلى القسطنطينية، أسافر هذه المرة على السفينة الفرنسية "أورينوك"، ومن المتوقع أن تستغرق هذه الرحلة البحرية نحو أسبوع. أصابنى التعب والإرهاق، سوف أسافر على الدرجة الثانية فى درجة رجل محترم، وأضع نفسى فى مكانة أعلى من مكانتى السابقة حين كنت مسافرا للأراضى المقدسة فى فلسطين.

كانت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر حين مضت السفينة عبر ميناء عكا، لتدخل مياه البحر الأبيض المتوسط متجهة إلى مدينة البندقية "فينيسيا"[١].

صعدت على سطح السفينة فى الجزء المسقوف، فشاهدت عددا كبيرا من الرهبان، كان بعضهم يرقد مسترخيا، والبعض الآخر يجلس على الأريكة، فى حين كان عدد آخر يتطلعون هنا وهناك مستخدمين المناظير المكبرة. كنت أشاهد الشاطئ، لم يكن وعرا بل كان سهلا منبسطا، ومناسبا ليكون ميناء، بعد ساعتين من مغادرتنا ميناء حيفا، مررنا ببلدة صور، شاهدت بيوتها البيضاء قرب الشاطئ، يقال إن عدد سكانها ٧٠٠٠ نسمة، وكانت تدعى قديما "تسور"[٢] . بعد صور اتجهنا شمالا نحو ٣٢ كيلو مترا[٣]، حيث مدينة صيدا ، يقال إن عدد

(١) مدينة فينيسيا، اسمها بالعربية البندقية وبالإيطالية Venezia، تمتد لتشمل ١١٨ جزيرة فى مستنقعات بحيرة البندقية على طول البحر الإدرياتيكى. (المترجم)

(٢) من المعروف أنها لعبت دورا حضاريا فى الحقبة الفينيقية، وأنشأت مستوطنة قرطاجة التى قارعت الدولة الرومانية وقاومت زحف الإسكندر الأكبر. (المترجم)

(٣) جاء فى الأصل ٨ ريات، والرى يساوى ٤ كيلومترات. (المترجم)

سكانها ١٢ ألف نسمة، وبها آثار "صيدون"(٤) ، ومن الخلف كنت أشاهد جبال لبنان بهضابها ومرتفعاتها التى تغطيها الأشجار المرتفعة. لقد كانت هذه المنطقة فى يوم من الأيام رائدة فى مجال الحضارة، ولعبت دورا حضاريا فى تاريخ آسيا، فقد واجهت قرطاجة الدولة الرومانية...

هذه بقايا أحلام أهل فينيسيا "البندقية"، جبال لبنان تخاطبنا، تقول لنا: لا تنظروا خلفكم! انطلقوا إلى الأمام، انطلقوا إلى البحر، فالبحر يناديكم، أرضكم ضيقة، فانطلقوا للمكان الفسيح الرحب، لا شك أن أهل فينسيا" البندقية" كانوا يعيشون فى هذه المنطقة، لكنهم اليوم ذهبوا من هنا! هناك شعاع بسيط من شمس تميل إلى الغروب يشير إلى الجبال فى حزن وأسى!

السفينة تمضى فى البحر بين أشعة الشمس الذهبية ساعة الغروب! فى الساعة السادسة وصلنا إلى ميناء بيروت، هذا ميناء سورى تأثر كثيرا بالغرب، لذا يعيش على الطريقة الأوروبية، يبلغ عدد السكان هنا نحو مائة ألف نسمة، شعرت أن الجبال قريبة جدا، والبحر أيضا قريب جدا، بدت بيروت بالنسبة لى مثل مدينة كوبيه فى اليابان، وهناك خط سكة حديد يسير حتى دمشق.

البحيرة المملوءة بالجزر

فى الخامس عشر من شهر يونية ألقت السفينة الفرنسية "أورينوك" مراسيها فى ميناء بيروت، السفينة الفرنسية تتميز بالنظام والنظافة، والفرنسيون يمتازون بالنشاط، ويميلون إلى المرح والبهجة، بدأ أحد البحارة يعزف على الكمان بينما كان زملاؤه يرقصون فى مرح وسرور.

فى السادس عشر من يونية أقلعت السفينة ناحية الغرب، فكان علينا أن نقول لسوريا وداعا، بينما كانت الريح تهب بشدة، والأمواج العاتية تضرب السفينة.

فى اليوم السابع عشر من يونية كانت الريح لا تزال تعصف، والبحر لا يزال هائجا، يضرب السفينة بالأمواج الشديدة، لذا لم أخرج من كابينتى، وكنت أقضم

---

(٤) الموقع الحالى يختلف، قليلا عن الموقع التاريخى، لأن معظم الآثار المكتشفة وجدت فى القباعة والهلالية وتل شرحبيل، وعلى كلٍّ فمدينة صيدا هى وريثة صيدون الفينيقية. (المترجم)

قطع البسكويت، وأنا جالس أقرأ الشعر. كان رفيقى فى الكابينة رجلا تركيا مهذبا فى منتصف العمر، وقد ركب السفينة من بيروت، تعاطف معى كثيرا ورقَّ لحالى لأن شكلى كان يدل على ما أعانية من تعب وإرهاق، فقدم لى برتقالتين. هذا الرجل المحترم عاش فى بريطانيا لوقت طويل، وهو يعمل فى تجارة النبيذ.

فى اليوم الثامن عشر من يونية حين استقيظت من نومى وجدت السفينة تمضى فى بحر إيجه الواقع بين شبه جزيرة اليونان والأناضول، مرت بنا السفينة على جزيرة رودس، واقتربت السفينة من جزيرة سبورادس، وفجأة شعرت بأننى أصبحت بخير، واستعدت عافيتى، فصعدت إلى سطح السفينة لأشاهد المنظر بوضوح، من ناحية بحر إيجه كان الجو صحوا، لكن المطر كان يهطل ناحية اليونان، وفوق البحر ظهر قوس قزح، فكتبت شعرا عن هذا المنظر البديع:

هـنـــاك رســـول قـــادم من أقـــصـى الــشــرق

رســـــول مـن أمـــــة الـــــيــــــابـــــان

بـــوابـــة الألـــوان الـــســبــعـــة تـــرحـب به

كنت منتشيا، وكان قلبى مفعما بالسرور بسبب هذا المنظر الرائع. توقف المطر، وتلاشى قوس قزح، وبدأت الشمس ترسل أشعتها لتضىء سطح البحر، كم هو جميل بحر إيجه! حين كانت السفينة تمر بين هذه الجزر فى بحر إيجه، كنت أشعر كما لو كنت فى بحر سيتونايكاى setonaikai، لكنى الآن فى البحر الفاصل بين أوروبا وآسيا، حيث يوجد الكثير من الجزر[٥]. منها الصغيرة والكبيرة، ورغم عددها الذى يصعب حصره فلا يوجد منها جزيرة تشبه الأخرى. شاهدت الجزر التى تطفو على المياه الزرقاء، كان لونها أخضر فاقع الخضرة، وكان بعضها يبدو بلون بنفسجى، وآخر بلون رمادى، وكنت أسمع أحيانا عزف قيثارة، وشاهدت فى بعض الجزر حدائق العنب المثمرة التى تدلت قطوفها بألوانها البيضاء، وكان من حولنا وعلى البعد منا قوارب ويخوت ومراكب الصياديين تمضى ببطء، كان منظرها رائعا، وفى إحدى الجزر شاهدت تمثال رودس[٦]. هذا هو بحر التاريخ،

(٥) يقال إن هناك نحو ١١٨جزيرة فى بحر إيجه. (المترجم)

(٦) أقيم تمثال رودس سنة ٢٩٢ ق . م، وكان قد انطمر ثم أعيد بناؤه. (المترجم)

١

أو هو كتاب يحمل صفحات التاريخ، وهذه الجزر هى جزر الشعر والرومانسية، أتعجب كيف يفتقد الشعر هذا المكان الساحر؟!

فى الساعة التاسعة صباحا وصلنا إلى ميناء "بطمس"، يقولون إنه فى مكان فى هذه الجزيرة كتب يوحنا الرؤيا التى تراءت له فى أحداث سفر الرؤيا[٧]، وكل الجزر القريبة من هنا ما هى إلا ساحات مقابر للأولين!

فى اليوم التاسع عشر وصلنا إلى "سميرنا"[٨] وهى من أكبر موانئ آسيا الصغرى، يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ألف نسمة، ويقال لها لؤلؤة بحر إيجه، وهنا تخيلت ميناء "ناجازاكى" فى اليابان.

إلى القسطنطينية

استيقظت يوم ٢٠ يونية حين كانت السفينة تعبر مضيق الدردنيل والبوسفور[٩]، ذات مرة عبرت جيوش الفرس من هنا، كما أن الإسكندر الأكبر عبر أيضا من هذا المكان، الجبال على الجانبين بارتفاع نحو ١٥٠ مترا[١٠]، ومساحة المضيق تبلغ نحو كيلومترين، على الجانب الآسيوى شاهدت قلعتين أثريتين، وهنا كانت عاصمة الأتراك القديمة، قبل أن يستولوا على القسطنطينية، وتوجد بقايا مدافع قديمة، وأطلال قرى، وشاهدت ثلاث سفن تركية مثبتا عليها

(٧) بطمس جزيرة يونانية وكنائسها تابعة للكنيسة الأرثوذكسية، وقد ذكرت فى الكتاب المقدس فى سفر الرؤيا، العهد الجديد، وكان يوحنا قد نفى إلى هذه الجزيرة، لذلك تعد بطمس مكانا للحج المسيحى، ففيها الكهف الذى يعتقد أن يوحنا كان فيه عندما تراءت له أحداث سفر الرؤيا. (المترجم)

(٨) يقصد أزمير، وسميرنا هو الاسم القديم لأزمير التى يرجع تاريخها إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد، وقد حاصرها الفرس وصارت متعددة الثقافات وثانى أكبر مدينة من مدن الإمبراطورية الإغريقية بعد إستانبول. (المترجم)

(٩) مضيق البوسفور يصل البحر الأسود وبحر مرمرة ويفصل تركيا الآسيوية عن تركيا الأوربية وتقع إستانبول على ضفتيه، بينما يقع مضياق الدردنيل عند الحدود الجنوبية بين قارتى آسيا وأوروبا وطول البوسفور نحو ٣٢ كم واتساعه ٥٤٩ عند أضيق نقطة و٣٠٠٠ م عند أوسع نقطة. (المترجم)

(١٠) فى الأصل ٥٠٠ شاكو، والشاكو وحدة قياس طولى قديمة تساوى ٣٠ سم. (المترجم)

مدافع، وصلت السفينة الفرنسية إلى بحر مرمرة، ومن الناحية الشرقية شاهدت جزيرة مرمرة، ومضينا شمالا لتقترب السفينة من مدينة سان إستيفانو الصغيرة[11]، وهى مشهورة؛ فبعد حرب روسيا وتركيا الثانية عقدت بها معاهدة السلام[12] . من فوق الهضاب والمرتفعات كان يمكننى أن أشاهد مساجد المسلمين، وتعجبت كثيرا من كثرة أعداد هذه المساجد التى بدت بقبابها الصغيرة والكبيرة وبجانبها المآذن العالية، شاهدتها هنا وهناك وبدت ككتل بيضاء وكتل رمادية أو وردية، وهذا المنظر لا يمكن أن نشاهده إلا فى القسطنطينية.

سألت مرافقى التركى عن سانت صوفيا فقال لى: لا تسأل مثل هذا السؤال، لأن البوليس إذا شك فيك، فسوف تتعرض للمتاعب. مضت السفينة وشاهدت حى سوكوتارى[13]، وهو الحى الشهير الذى عالجت فيه الممرضة الإنجليزية نايتينجل جرحى حرب القرم[14]، عن يسارى كان يمكننى أن أشاهد منظر القسطنطينية بالكامل، وقد وصلت السفينة إلى منطقة "جلطا"[15].

مقتطفات عن تركيا، القسطنطينية من أعظم مدن العالم

من يبحر فى بحر مرمرة ومضيق البوسفور يجد نفسه أمام مدينة القسطنطينية العظيمة التى تعد بوابة القارة الأوروبية، وقد بناها الإمبراطور

---

(١١) سان إستيفانو ضاحية من ضواحى إستانبول على الضفة الأوروبية من بحر مرمرة. (المترجم)

(١٢) يشير المؤلف إلى معاهدة سان إستيفانو التى فُرِضت على الدولة العثمانية المنهزمة أمام روسيا فى الحرب التى نشبت فى أبريل ١٨٧٧م . انظر: محمد فريد، تاريخ الدولية العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقى، دار النفائس، بيروت ٢٠٠٣م. (المترجم)

(١٣) يشير المؤلف إلى حى scutari فى إستانبول الذى يعرف حاليا باسم أوسكودار uskudar. (المترجم)

(١٤) يشير المؤلف إلى الممرضة المشهورة تاريخيا باسم فلورنس نايتينجل (١٨٢٠ - ١٩١٠م) وكانت رائدة فى التمريض، وأسهمت فى علاج الجنود المشاركين فى حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦م) بصرف النظر عن جنسياتهم؛ مما مهد السبيل لميلاد ما يعرف باسم منظمة الصليب الأحمر، وكان المعسكر البريطانى قد أقيم فى حى أوسكودار فى إستانبول. (المترجم)

(١٥) جلطا Galata حى من أحياء بيوجلو ضمن محافظة إستانبول على الجانب الأوروبى، تقع على الشاطئ الشمالى من القرن الذهبى الذى أقيمت عليه عدة جسور، من أشهرها جسر جلطا. (المترجم)

قسطنطين منذ ألف وخمسمائة سنة[١٦]، وعلى جانبى المضيق تنقسم المدينة إلى قسمين أحدهما فى آسيا والآخر فى أوروبا. كانت السفينة تمضى فى بحر مرمرة، إذا مضينا شمالا دخلنا البحر الأسود، وإذا نزلنا جنوبا عدنا للبحر الأبيض المتوسط، كم هو رائع وجميل بحر مرمرة!

كان الميناء مثل قرن جاموسة[١٧]، يدخل من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى فى عمق الماء، والمسافة بطول ثمانية كيلومترات[١٨] وبعرض ١٥مترا[١٩]. توجد مبان كثيرة حول هذا الميناء، ويطلق الناس على جزء من الميناء اسم "إسطنبول" وهنا المدينة القديمة، وشمال الميناء يطلقون عليه اسم بيرا، ويسمون المكان الذى ترسو فيه السفية "جلطا"، وإذا عبرنا الميناء من الجنوب إلى الشمال، فهنا يُطلق على المكان اسم القسطنطينية[٢٠]، وهنا أيضا أشاهد الكثير من المبانى العالية بألوان مختلفة، وقد شاهدت فى هذه المنطقة أيضا العديد من المساجد المتميزة بقبابها ومآذنها، وشاهدت كثيرا من الناس يعبرون الجسر، وهناك أعداد كبيرة من السفن راسية فى الميناء، ومن الجانب الشرقى يمكننى أن أرى "حى أوسكودار" [٢١]وأعدادا لا حصر لها من القوارب والمراكب الصغيرة والسفن بأحجام مختلفة تتحرك متلاصقة يزاحم بعضها بعضًا هذه هى مدينة القسطنطينية الشهيرة، لكن يا للخجل! فأنا الإنسان المريض القادم من أقصى الشرق أصف هذه المدينة بأنها مدينة قذرة وغير مريحة على الإطلاق!

---

(١٦) كانت القسطنطينية فى الأساس تدعى بيزنطة، وقد وجدت فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وقد جعلها قسطنطين الأول عاصمة له سنة ٣٢٤م فسميت باسمه، وهى التى سميت الأستانة أو إستانبول أو إسطمبول بعد الفتح العثمانى أو إسلامبول. (المترجم)

(١٧) لذا أطلقوا عليه القرن الذهبى، وهو عبارة عن شبه جزيرة فى إستانبول، ويقع فيه قصر الباب العالى ومسجد السلطان أحمد وأياصوفيا. (المترجم)

(١٨) فى الأصل ريان، والرى يساوى ٤ كيلو مترات. (المترجم)

(١٩) فى الأصل ٥ جوات، والجو وحدة قياس قديمة تساوى ٣ أمتار. (المترجم)

(٢٠) ربما يشير المؤلف بهذه التقسيمات إلى الأحياء التى تتكون منها "إستانبول الكبرى". (المترجم)

(٢١) انظر حاشية (١٣) السابقة. (المترجم)

وصلت القسطنطينية مساء يوم عشرين يونية، وأقمت فى فندق "لندن" فى منطقة "بيرا"، وفى اليوم التالى خرجت للتفرج على المدينة. يبلغ تعداد سكان المدينة١١٠ آلاف نسمة، وتُضاء شوارعها بمصابيح تعمل بالجاز، لكن لا توجد كهرباء ولا هواتف، وشاهدت عربات تجرى على القضبان تجرها الخيول، حين جاء الإمبراطور الألمانى هنا زار هذه المنطقة، لهذا أنشأوا سكة حديد فى مسافة قصيرة. سمعت إشاعة من قبل لكنى الآن أتعجب من الكلاب فى القسطنطينية، فهنا يوجد كثير من الطرابيش وكثير من الكلاب، وإذا سألت كم عدد الناس الذين يعيشون هنا، قالوا: ١١٠ آلاف نسمة. لكن إذا سألت وكم عدد الكلاب، قالوا: ما زلنا نقوم بعملية الإحصاء.

ذكر لى بعض معارفى ممن زاروا تركيا من قبل أنه أحصى ٢٥ كلبا فى مربع حى صغير، والكلاب تتحرك فى الطريق هنا وهناك، وتنام أيضا فى الطريق، وهى كلاب أجسامها مثل أجسام الذئاب الضامرة، وجميعها بلا صاحب ، كلاب ضالة، لهذا فهى دائما جائعة.

لا يهتم الأتراك بالوقت أبدا، ولا يهتمون بالنظام أيضا، فهم يقومون بإلقاء القمامة فى الطريق أثناء الليل، فتندفع الكلاب الجائعة إلى هذه القمامة، فتلتهم كل شىء، وتبدو هذه الكلاب كما لو كانت تقوم بأعمال النظافة فى الشوارع، وقد سمعت أن برازها يجمع ويستخدم فى دبغ الجلود[٢٢] . وتشكل الكلاب جماعات، تحتفظ كل جماعة منها بمنطقتها الخاصة، وتمنع كلاب المناطق الأخرى من دخول حدود هذه المنطقة، وهى لا تعوى إذا ما شاهدت إنسانا، لكنها تعوى إذا ما شاهدت كلبا غريبا يدخل المنطقة، ولا تتوقف عن العواء حتى يهرب هذا الكلب الدخيل ويولى الأدبار.

(٢٢) هذه مبالغة من الكاتب الذى عادة ما يكون حاد المزاج إذا وجد نفسه فى ثقافة مختلفة، انظر المقدمة. (المترجم)

فى مجتمع الحيوان توجد نفس المتاعب التى توجد في مجتمع الإنسان، فى القسطنطينية تكشف ظروف الكلاب عن ظروف المجتمع الإنسانى فى بداية القرن العشرين، حين يشعر البلد الواحد بالضيق، وبأن أرضه لا تسعه، ولذا يريد أن يتمدد، ويريد أن يتوسع على حساب بلد آخر. حين كنت أمضى من "جلطا" إلى "بيرا" شاهدت كلبة ولدت للتو أكثر من جروٍ، ربما خمسة أو ستة، شعرت بالتعاطف تجاه صغارها، فكيف سيعيشون فى المستقبل؟ الأتراك يعتقدون أن الكلب نجس، لكنهم لا يهتمون بالأمر، وربما كانت هذه طريقة تركية فى التعامل مع الأمور.

جسر جلطا

عبرت جسر جلطا طوله ٢٠٠ كين(٢٣)، وهو مصنوع من الخشب، ومركز الجسر يمكن أن يفتح ويغلق عند مرور السفن، وبجانب هذا الجسر يوجد جسر آخر، ومن يمر على أى من الجسرين عليه أن يدفع رسم مرور قدره سينان(٢٤) ويُدر هذان الجسران دخلا يقدر بمائة وخمسين ألف ين سنويا. لا بد من تغييرهما إلى جسور فولاذية، أتعجب لماذا يستخدمون هذه الجسور الخشبية القديمة حتى اليوم، كنت كلما أمضى على الجسر أسمع وقع خطواتى وخطوات الآخرين أيضا!

سانت صوفيا (أيا صوفيا)

عبرت جسر جلطا، ومضيت فى شوارع مدينة إسطنبول، ووصلت إلى كنيسة سانت صوفيا، كنيسة كبيرة جدا، سانت صوفيا تعنى أن هذه كنيسة للنصارى، وقد بناها الإمبراطور جستينيان، وأنفق على بنائها عشرة ملايين ين، وخصص لها عشرة آلاف نجار يشرف عليهم مائة خبير، ومنذ خمسمائة سنة استولى

(٢٣) لم نجد معنى كين، إلا أن طول الكوبرى ـ الذى تم بناؤه سنة ١٨٧٥م، وظل يستخدم حتى ١٩١٢م، وبنته شركة فرنسية بتكلفة ١٠٥ آلاف ليرة ذهبية ـ كان نحو ٤٨٠ مترا طولا و ١٤مترا عرضا، وبهذا يكون الكين القياس اليابانى القديم يساوى مترين وأربعين سنتيمترًا. (المترجم)

(٢٤) السين عملة يابانية قديمة لا تستخدم الآن، وهى أقل من الين، وربما كانت مساوية لجزء من "المليم" الذى اختفى منذ سنوات. (المترجم)

المسلمون عليها، وكانت الكنيسة آنذاك تابعة للمسيحيين اليونانيين، والآن تحولت إلى أيدى المسلمين. خلعت حذائى واستعرت نعلا، ودخلت من الباب، يا له من مبنى ضخم! القبة قطرها ٤٥ مترا[٢٥] والارتفاع ٥٤ مترا[٢٦] وحولها أربعون نافذة، والأعمدة مصنوعة من الرخام المرمرى الجميل. يقول الناس إن الإمبراطور استجلب هذه المواد من اليونان وبعض دول آسيا، وكان هناك صليب كبير جدا عند المدخل، وبالطبع تمت إزالته، وقاموا بطلاء الصور باللون الأبيض، فأصحاب المبنى الجدد قاموا بعمليات تجديد فى المبنى، فصارت الأرضية كلها مغطاة بالسجاجيد، وفى بعض الأماكن علقوا قطعا من السجاد مكتوبا عليها آيات من القرآن الكريم، وأمام المدخل حجر ضخم من الرخام وهو مخصص للوضوء، شاهدت أحد العمال خلع حذاءه وغسل قدميه ويديه ثم ذهب إلى حيث السجاد، واستدار إلى ناحية مكة وبدأ الصلاة[٢٧].

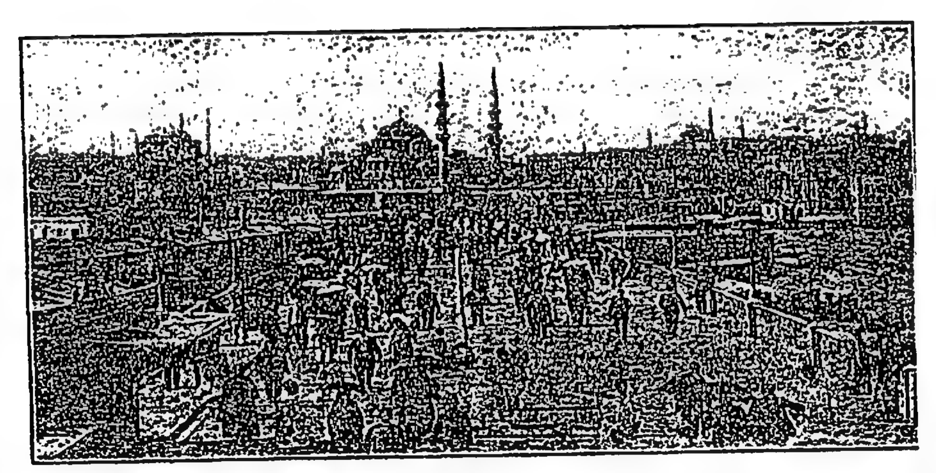
شاهدت فى الركن عجوزا له لحية بيضاء تدلت حتى صدره، يجلس ومعه ثلاثة من تلاميذه يرتلون القرآن الكريم، صعدت إلى الطابق الثانى... آه كيف أمكنهم وضع هذه الأحجار المرمرية وتثبيتها هنا؟! سمعت أنه حدث زلزال هنا ذات مرة واهتز المبنى، وتأثرت أجزاء كثيرة من المبنى فقاموا بإصلاحها، لكن لو حدث هنا زلزال من النوع الذى يحدث فى اليابان لتحطم المبنى كله.

---

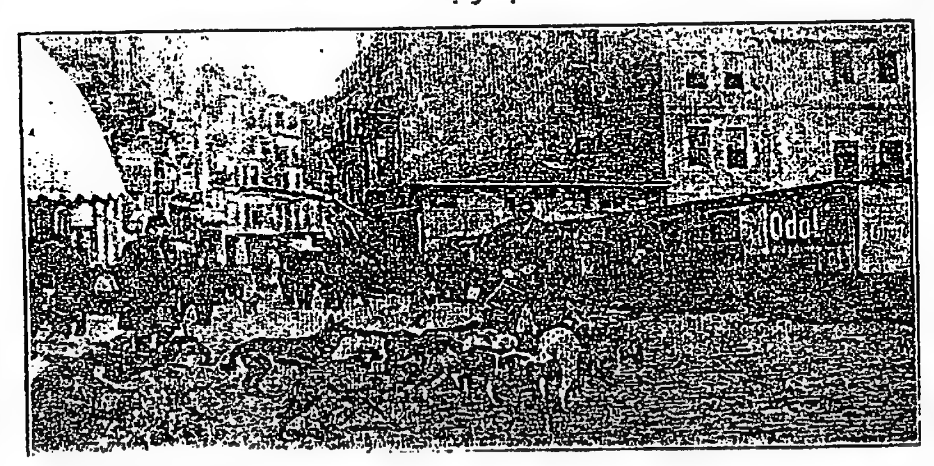
(٢٥) فى الأصل ١٥ جو فى مصر، والجو يساوى ٣ أمتار. (المترجم)

(٢٦) فى الأصل ١٨ جوًا. (المترجم)

(٢٧) لم يكن المؤلف دقيقا هنا، فلا يمكن أن يكمل الوضوء بغسل القدمين ثم اليدين فقط.



جسر جلطا



الكلاب الضالة فى تركيا

على شواطئ البوسفور

فى اليوم الثانى والعشرين من يونية التقيت السيد "ن" الذى يعمل فى متجر "ناكامورا للبضائع اليابانية" ، هذا المتجر يقع فى الحى اليابانى الوحيد فى تركيا، وقد رافقنى وأرشدنى إلى وسط المدينة.

شاهدت كتيبة عسكرية بالقرب من الجسر، هذه الكتيبة تقوم بحراسة السلطان الذى سيأتى لصلاة الجمعة بالمسجد، فاليوم هو يوم الجمعة. كان منظر

العسكر الأتراك وهم يمشون بخطوات ثابتة حاملين بنادقهم الممتدة يوحى بالقوة والشجاعة، يقولون إن السلطان يخشى من تعرضه للاغتيال من قبل إحدى الجماعات التركية.

مضت السفينة التى ركبتها فى المضيق، يقولون الاتجاه شمالا يعنى الذهاب إلى البحر الأسود، والاتجاه جنوبا يعنى الدخول فى بحر مرمرة، تمضى السفينة بين أوروبا وآسيا، شاهدت الشاطئ المملوء بالأشجار الخضراء، ومن فوق الأشجار شاهدت مبنى قصر كبير، بدت المياه صافية جدا، كان هناك بعض الصغار يصيدون السمك، شاهدت على الجانب الأوروبى أطلال قلعة قديمة، وأخيرا نزلت من السفينة إلى شاطئ منتجع مملوء بالفنادق والمقاهى والاستراحات، التقيت ضابطًا تركيًا اسمه "على" لا يحمل رتبة عسكرية عالية، بل كان فى بداية مشواره فى الترقية، وهو صديق السيد "ن" الذى يعمل فى متجر ناكامورا للبضائع اليابانية، كانت لغة الضابط على اليابانية جيدة، وكان يمكنه أن يكتب اليابانية بحروف الكاتاكانا(٢٨)، كان على فى الثلاثين من عمره، وهو إنسان مهذب وخلوق، وهادئ الطبع أيضا، جلسنا معا فى مقهى بالقرب من الشاطئ، وقد دعانا لتناول القهوة مع الخبز والبرقوق أيضا. وبعد ذلك ركبنا نحن الثلاثة الحمير، وانطلقنا فوق ظهورها إلى حديقة تقع فى منطقة جبلية، وهناك شاهدت أرففا تتدلى منها أزهار البنفسج، وشاهدت أيضا ثمار أشجار الكستناء. كانت لغة الضابط التركى على اليابانية مثل لغتى الإنجليزية!

لا يختلف الناس الذين قابلتهم عن اليابانيين إلا فى الطربوش واللغة، وشعرت أنهم إذا تركوا الطربوش ولم ينطقوا بكلمة، فإنهم مثل اليابانيين تماما، وقد نسيت أحيانا أننى فى تركيا. شاهدت فى الحديقة عين ماء جارية، وبالقرب منها فرقة موسيقى تركية مكونة من خمسة رجال يعزفون على الكمان والماندولين والطنبورة لحنا حزينا، فبدأ السيد "ن" والضابط على يدخنان السجائر، أما أنا

---

(٢٨) تكتب اليابانية بالكاتاكانا والهيراجانا وبأشكال الكانجى التى استعارتها اليابان من اللغة الصينية. (المترجم)

فلم أدخن، واستمعنا للموسيقى عدة دقائق ثم ركبنا ظهور الحمير مرة أخرى وعدنا أدراجنا.

شاهدت "فيلا" الضابط على، وهو يقوم هذه الأيام بترميمها، وتتكون من ثلاثة طوابق، وفيها أربع عشرة غرفة، وللفيلا حديقة خلفية، وتبلغ مساحتها الكلية حوالى ٤٩٥ مترا مربعا[٢٩]، وقد ذكر على أن التكلفة تبلغ حوالى١٤٠٠جنيه، وهو مبلغ يساوى ١٥٠٠٠ين يابانى، هكذا قال.

جاء إلينا رجل فى الأربعينيات من عمره، يضع الطربوش على رأسه، بدأ يتكلم اللغة الإنجليزية "المكسرة". عرفت أنه تاجر أرمينى، وأنه عاش فى بريطانيا مدة طويلة، وهناك درس بنفسه اللغة اليابانية، وأرانا كتاب محادثة باللغة اليابانية والإنجليزية على هيئة قاموس، كتبت فيه اللغة اليابانية بالحروف الإنجليزية.

أخذنا نحن الأربعة الخيول، واتجهنا جنوبا إلى الشاطئ حيث شاهدنا مباراة "البولو"، كان اللاعبون كلهم أوروبيين، وبعدها افترقنا وودعنا بعضنا بعضا، أخذت مع السيد "ن" قاربا صغيرا وعدنا من حيث أتينا.

متفرقات

كنت كلما شاهدت الطربوش التركى الأحمر بزره الأسود المتدلى من الخلف، أتذكرالصينيين الذين كانوا يطلقون شعورهم السوداء خلف ظهورهم، المرضى فى الشرق الأوسط والمرضى فى الشرق الأقصى متشابهون فى نقاط عدة، فأعراض المرض هى بشكل أو بآخر متشابهة، يتحاشى الأتراك كل الوقت الشائعات، فى مركز مراجعة الجوازات، حين قام الموظف المختص بالتدقيق فى جواز سفرى وفى أمتعتى، أشار إلى كتاب كنت أحمله معى، وسألنى: ما هذا؟

فأجبته: هذا كتاب إرشادى ، كتاب من أجل السائح.

فسألنى ثانية: هل فيه شىء عن تركيا؟

مثل هذا السؤال وغيره كثير...!

---

(٢٩) فى الأصل ١٥٠ تسوبوا، والتسوبو ٣,٣ مترا مربعا. (المترجم)

وكنت إذا أردت إرسال بطاقة بريدية من مكتب البريد، لا يوافقون على إرسالها إذا حملت البطاقة منظرا أو صورة لأحد الأماكن فى تركيا، وبمناسبة مكتب البريد يوجد مكتب بريد حكومى واحد فقط هو المكتب الرئيسى، لكن حول هذا المكتب توجد مكاتب بريد أخرى خاصة، يديرها البريطانيون والفرنسيون والروس والألمان، بدا لى الأمر غريبا وعجيبا! وتركيا بلد مغلق، لذا يصعب الحصول على فيزا أو تأشيرة دخول إليها. حين كنت فى القدس، وذهبت إلى مكتب الشرطة للحصول على الفيزا، شاهدت كثيرا من التجار الذين رفضت طلباتهم للحصول على الفيزا، فى ذلك الوقت همس روبرت فى أذنى: "يأخذون بقشيشًا أكثر من ٢٠ فرنكًا للفيزا الواحدة" وفى القسطنطينية نفس الأمر.

* *

طريقة التحية فى تركيا عند المهذبين جدا هى رفع اليد اليمنى ثم خفضها إلى أسفل ثم رفعها إلى الرأس، وتعد هذه هى الطريقة المهذبة جدا، بينما التحية العادية هى وضع اليد بمحاذاة الفم ثم رفعها إلى مستوى الرأس، وهذه التحية تعنى أن قلبى وعقلى معك ومن أجلك[٣٠] وهم يقدمون للضيف فى جميع المناسبات القهوة مع الماء، وتقدم القهوة فى "فنجان" صغير، وعادة ما تقدم دون سكر، والماء مهم جدا عند تقديم القهوة، وهم لا يقدمون الخمر لأنه محرم كما جاء فى القرآن.

* *

الرشوة التى تقدم لموظفى الحكومة أمر منتشر وشائع، وبخاصة بين رجال الشرطة الذين لا يخضعون لمراقبة أو إشراف أو مساءلة، وإذا ما قبضوا على لص، فإن المسروقات يتم تقسيمها بينهم، وهم فى جميع الأوقات يطلبون الطعام أو أى شى مقابل تقديمهم أى خدمة، وجدت أحد الضباط يبيع "النيشان" العسكرى الذى حصل عليه، فاشتريته منه!

* *

(٣٠) ربما قصد المؤلف: "على رأسى". (المترجم)

يستخدمون فى تركيا الحروف العربية فى الكتابة، ويكتبون اللغة التركية من اليمين للشمال بشكل جميل، وتبدو الكلمات المكتوبة مثل لوحة فنية، أما الساعة التركية فتتبع النهار والليل، فالساعة السادسة بالنسبة لى هى بالنسبة لهم الثانية عشرة[٣١].

* *

هذا البلد يتطور بالإسلام وبالقوة العسكرية، فى المدرسة الابتدائية لا يعلمون القرآن، وهناك مدارس عسكرية كثيرة، وهناك مدرستان للتعليم العالى، وتركيا هى البلد الذى يتجمع فيه الأوروبيون، ولذا يتقن الناس لغتين أو ثلاث لغات، واللغة الفرنسية شائعة هنا.

* *

شاهدت بالقرب من الميناء فرقاطة حربية تركية حمولتها نحو تسعة أطنان، قال السيد "ن" إن هذه الفرقاطة راسية هنا منذ ستة أشهر، يقوم بحارتها فى النهار بغسل ملابسهم ونشرها فى الهواء، وفى الليل يتمتع هؤلاء بما تعزفة الفرقة العسكرية من موسيقى، ويذهب هؤلاء مرة كل سنتين إلى بريطانيا للتدريب، هذا هو عمل البحرية.

* *

فى البيوت التركية يقومون بعمل "مشربيات" من المعدن بدلا من النوافذ فى الجهة المواجهة للطريق، يقولون: إنهم يريدون الحفاظ على البنات غير المتزوجات من فضول نظرات المارة، فهذا يجعلهم فى أمان بعيدا عن الأنظار، وفى اللغة التركية يستخدمون كلمة "حرمتك" و "حرمتى"، ولا ينطقون بالاسم، هذا ما أخبرنى به على، فهم لا يقولون زوجتك أو زوجتى، وقال على أيضا: إن نظام الزواج بأربع مسموح به طبقا لما جاء فى القرآن، لكن للشخص الذى له القدرة على ذلك، وربما يوجد هذا فى جزيرة العرب، لكن لا يوجد لدينا من هو متزوج بأكثر من واحدة، لكن بعض الناس لديه خليلة من أجل التسرى، وهؤلاء يتم جلبهن

---

(٣١) وهو ما كان يعرف قديما بالتوقيت العربى مقابل التوقيت الإفرنجى. (المترجم)

من منطقة القوقاز حيث توجد نساء جميلات ومتعلمات، ومن هنا يمكن دفع مبلغ خمسة آلاف أو ستة آلاف من أجل امرأة جميلة متعلمة.

لا يوجد فى القسطنطينية طبقة متوسطة فى المجتمع التركى، فترى الناس صنفين: صنفا يرتدى الحرير، وصنفا يرتدى الخيش.

**

كيف يفكر الأتراك عن اليابانيين؟ وما هى وجهة نظرهم؟ ببساطة يرون أن اليابان كسبت الحرب ضد روسيا بينما خسرت تركيا الحرب ضد روسيا، هذا يعنى أن اليابانيين فى أقصى الشرق أفضل من الأوروبيين، هذا ما يشكل مشاعرهم تجاه اليابان، لكن يبدو أنهم يشعرون بالحسد والغيرة!

سمعت وأنا هنا أن السلطان التركى دعا السيد ناكامورا وقال له: لماذا لا تصبح مسلما يابانيا، وتعمل من أجل الدعوة الإسلامية فى اليابان؟ ما رأيك فى هذه الفكرة؟

إلا أن السيد ناكامورا أجاب: إذا قبلت هذه الفكرة فهذا يعنى أن إمبراطورى فى اليابان لا يحتل مرتبة عالية، ولن يكون بالنسبة لى هو الرمز الأعلى.. هذا غير ممكن ، لهذا أنا آسف جدا!

**

المرضى فى الشرق الأقصى يحاولون أن يستيقظوا، وأيضًا المرضى فى الشرق الأوسط يناضلون، لقد أوجدت الحرب التى دارت بين اليابان وروسيا صدمة كهربائية للبلاد الآسيوية لكنها لم تؤثر على تركيا، والشعب التركى فى أصله شعب صبور، كما أنه شعب لا يصيبه اليأس، وشخصية الأتراك هذه تجعل "المرحوم" جراندستون يغضب(٣٢)، فقد اعتاد على أن يقول: لا بد أن نخلص أوروبا من تركيا، إلا أنه من العدل القول بأن أحفاد الصليبيين لا يمكنهم فى كل

---

(٣٢) وليام جراندستون مفكر وسياسى بريطانى، تقلد رئاسة الوزراء البريطانية أكثر من مرة، وشهد مقتل ٣٠٠ ثائر مصرى فى الإسكندرية عام ١٨٨٢م وقت ثورة عرابى، وشجع على احتلال مصر عسكريا، معتبرا إياها فى حالة عصيان عسكرى ولا يوجد بها قانون. وقد كتب عام ١٨٣٨م كتابا بعنوان The State in Its Relations with the Church موضحا أن هدف الدولة دعم الدفاع عن مصالح الكنيسة الإنجليزية. (المترجم)

حين أن يستعبدوا أو يهزموا أصحاب "الهلال"[٣٣] . وأنا أظن أنه إذا كان هناك ما يمنع نهضة التركيا فهو فهمهم للإسلام، أتمنى من أجل الشعب التركى أن تستخدم تركيا القوة العسكرية والشجاعة والبسالة مثلما فعلت اليابان هناك حيث تشرق الشمس فى أقصى الشرق، وهنا فى الغرب بلد يطلع فيه الهلال، ونحن هذه الأيام نفكر معا، الشمس والهلال، بلد الشمس المشرقة تصلى وتدعو من أجل أهل البلد الذى يطلع فيه الهلال، وأتمنى أن يطلع الهلال ويسطع كالمرآة!

أتمنى ذلك من أعماق قلبى!

---

(٣٣) يرمز هنا إلى تركيا أو المسلمين عامة . (المترجم)

المؤلف فى سطور:

كينجيرو توكوتومى:

أديب ذاعت شهرته فى اليابان، وترجمت بعض أعماله إلى أكثر من لغة، ولد فى عام ١٨٦٨م فى إحدى قرى جنوب غرب جزيرة كيوشو لأسرة تنتمى إلى طبقة الساموراى، وانتقل إلى كيوتو للدراسة فى جامعة دوشيشا، وكان سعيدا جدا بالدراسة فيها، متمتعا بعالم جديد من الكتب، وبجو خليط من الحياة اليابانية والغربية. بعد أن ذاعت شهرته أديبا وروائيا، اتخذ من اسم لوقا اسما أدبيا، ولوقا أو روقا ـ كما يُكتب باليابانية ـ يعنى الزهرة التى تنبت بين الصخور، لكن لا وجود لها فى الواقع، وهى من بنات أفكار كينجيرو توكوتومى، وصف بها نفسه!! تعد رواية طائر الوقواق (هوتوتوجيسو) ورواية الطبيعة والحياة من أشهر رواياته، وقد نشرت أعماله الكاملة فى عشرين مجلدا.

فى أواخر سنة ١٩٢٦م تدهورت صحة كينجيرو كثيرًا ثم غرق فى نوم عميق لم يصح منه.

المترجمان فى سطور:

سمير عبد الحميد إبراهيم:

ولد بمحافظة الشرقية بمصر وعمل بجامعة القاهرة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، قبل أن يعمل حاليا أستاذا للغات الشرقية وآدابها بجامعة دوشيشا فى اليابان، من مؤلفاته "الإسلام والأديان فى اليابان"، و"الجزيرة العربية فى أدب الرحلات الأردية"، و "جسور التواصل الحضارى بين العالم الإسلامى واليابان"، و"فهم الإسلام فى اليابان بين الماضى والحاضر". ترجم كتبًا كثيرة عن الأردية والفارسية واليابانية، نُشِر عدد منها (تسعة كتب) ضمن المشروع القومى للترجمة فى المرحلة الأولى، ومن ترجماته عن اليابانية (بمشاركة زوجته سارة تاكاهاشى): خيط العنكبوت وقصص أخرى من الأدب اليابانى" و "يابانى فى مكة"، و "تناكا إيبيه رائد الدراسات الإسلامية ورحلاته إلى الجزيرة العربية".

سارة تاكاهاشى:

ولدت فى محافظة طوهوك فى شمال اليابان، بعد أن أنهت دراستها فى اليابان درست فى جامعة كامبردج، والمعهد العربى الإسلامى فى طوكيو، وفى جامعة الأزهر. ترجمت عددا من الكتب منها: الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية لإيجيرو ناكانو، كما ترجمت (بمشاركة زوجها سمير عبدالحميد): "خيط العنكبوت وقصصًا أخرى من الأدب اليابانى"، ونشرت عددا من المقالات

والقصص المترجمة فى عدد من المجلات الأدبية، "يابانى فى مكة"، و"تناكا إيبيه ورحلاته إلى الجزيرة العربية" و كما نشرت عددا من البحوث باللغة اليابانية منها: "الرحلات اليابانية للبلاد العربية" و"الرحلة إلى الحج فى الأدب اليابانى" و"عشر سنوات فى الرياض".

التصحيح اللغوى: حامد الشيمى

الإشــراف الفنى : محسن مصطفى